بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار

في شرح جوامع الأخبار

لمؤلفه الفقير إلى الله
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

مكتبة المعارف
الرياض

الطبعة الثالثة
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

مكتبة المعارف - ص.ب: ٣٢٨١ - هاتف ٤٠١٣٧٠٨ - ٤٠٢٣٩٧٩
الرياض - المملكة العربية السعودية

تعريف بالكتاب

من تأمل هذا الكتاب على اختصاره ووضوحه رآه مشتملا من جميع العلوم النافعة على : علم التوحيد ، والأصول ، والعقائد ، وعلم السير والسلوك إلى الله ، وعلم الأخلاق ، والآداب الدينية ، والدنيوية ، والطبية ، وعلم الفقه والأحكام فى كل أبواب الفقه : من عبادات ، ومعاملات ، وأنكحة ، وغيرها ، وبيان حكمها ، ومأخذها وأصولها وقواعدها ، وعلوم الإصلاحات المتنوعة ، والمواضيع النافعة ، والتوجيهات إلى جلب المنافع الخاصة والعامة ، الدينية والدنيوية ، ودفع المضار .

وهى كلها مأخوذة ومستفادة من كلماته صلوات الله وسلامه عليه ، حيث اختير فيه شرح أجمع الأحاديث وأنفعها ، كما ستراه .

وذلك كله من فضل الله ورحمته . والله هو المحمود وحده .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المحمود على ما له من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العظيمة العليا، وعلى آثارها الشاملة للأولى والأخرى.

وأصلى وأسلم على محمد أجمع الخلق لكل وصف حميد، وخلق رشيد، وقول سديد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه من جميع العبيد.

أما بعد: فليس بعد كلام الله أصدق ولا أنفع ولا أجمع لخير الدنيا والآخرة من كلام رسوله وخليله محمد صلى الله عليه وسلم؛ إذ هو أعلم الخلق، وأعظمهم نصحا وإرشاداً وهداية، وأبلغهم بيانا وتأصيلا وتفصيلا، وأحسنهم تعليما. وقد أوتى صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصارا، بحيث كان يتكلم بالكلام القليل لفظه، الكثيرة معانيه، مع كمال الوضوح والبيان الذى هو أعلى رتب البيان.

وقد بدا لى أن أذكر جملة صالحة من أحاديثه الجوامع فى المواضيع الكلية، والجوامع فى جنس، أو نوع، أو باب من أبواب العلم، مع التكلم على مقاصدها وما تدل عليه، على وجه يحصل به الإيضاح والبيان مع الاختصار، إذ المقام لا يقتضى البسط.

فأقول مستعينا بالله، سائلا منه التيسير والتسهيل:

الحديث الأول

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امرئ مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها . فهجرته إلى ما هاجر إليه » متفق عليه .

الحديث الثانى

عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول صلى الله عليه وسلم : «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه ـ وفى رواية : من عمل عملا ليس عليه أمرنا ـ فهو رد » متفق عليه .

هذان الحديثان العظيمان يدخل فيهما الدين كله ، أصوله وفروعه ، ظاهره وباطنه . فحديث عمر ميزان للأعمال الباطنة ، وحديث عائشة ميزان الأعمال الظاهرة .

ففيهما الإخلاص للمعبود ، والمتابعة للرسول اللذان هما شرط لكل قول وعمل ، ظاهر وباطن . فمن أخلص أعماله لله متبعاً فى ذلك رسول الله فهذا الذى عمله مقبول . ومن فقد الأمرين أو أحدهما فعمله مردود ، داخل فى قول الله تعالى : (٢٥:٢٣ وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجلناه هباء منثورا) والجامع للوصفين داخل فى قوله تعالى : (١٢٥:٤ومن

أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ـ الآية) ، (١١٢: بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

أما النية : فهي القصد للعمل تقرباً إلى الله ، وطلباً لمرضاته وثوابه . فيدخل فى هذا : نية العمل ، و نية المعمول له .

أما نية العمل : فلا تصح الطهارة بأنواعها ، ولا الصلاة والزكاة والصوم والحج وجميع العبادات إلا بقصدها و نيتها ، فينوى تلك العبادة المعينة . وإذا كانت العبادة تحتوى على أجناس وأنواع ، كالصلاة ، منها الفرض ، والنفل المعين ، والنفل المطلق . فالمطلق منه يكفى فيه أن ينوى الصلاة . وأما المعين من فرض أو نفل معين ـ كوتراً وراتبة ـ فلا بد مع نية الصلاة أن ينوى ذلك المعين . وهكذا بقية العبادات .

ولا بد أيضاً أن يميز العادة عن العبادة . فمثلا الاغتسال يقع نظافة أو تبرداً ، ويقع عن الحدث الأكبر وعن غسل الميت وللجمعة ونحوها فلا بد أن ينوى فيه رفع الحدث أو ذلك الغسل المستحب . وكذلك يخرج الإنسان الدراهم مثلا للزكاة ، أو للكفارة ، أو للنذر ، أو للصدقة المستحبة ، أو هدية . فالعبرة فى ذلك كله على النية .

ومن هذا : حيل المعاملات إذا عامل معاملة ظاهرها وصورتها الصحة ، ولكنه يقصد بها التوسل إلى معاملة ربوية ، أو يقصد بها إسقاط واجب ، أو توسلا إلى محرم. فإن العبرة بنيته وقصده ، لا بظاهر

لفظه؛ فإنما الأعمال بالنيات. وذلك بأن يضم إلى أحد العوضين ما ليس بمقصود، أو يضم إلى العقد عقداً غير مقصود. قاله شيخ الإسلام.

وكذلك شرط الله فى الرجعة وفى الوصية: أن لا يقصد العبد فيهما المضارة.

ويدخل فى ذلك جميع الوسائل التى يتوصل بها إلى مقاصدها؛ فإن الوسائل لها أحكام المقاصد، صالحة أو فاسدة. والله يعلم المصلح من من المفسد.

وأما نية المعمول له: فهو الإخلاص لله فى كل ما يأتى العبد وما يذر، وفى كل ما يقول ويفعل. قال تعالى: (٩٨:٥ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وقال: (٣٩ : ٣ ألا لله الدين الخالص).

وذلك أن على العبد أن ينوى نية كلية شاملة لأموره كلها، مقصوداً بها وجه الله، والتقرب إليه، وطلب ثوابه، واحتساب أجره، والخوف من عقابه. ثم يستصحب هذه النية فى كل فرد من أفراد أعماله وأقواله، وجميع أحواله، حريصاً فيه على تحقيق الإخلاص وتكميله، ودفع كل ما يضاده: من الرياء والسمعة، وقصد المحمدة عند الخلق، ورجاء تعظيمهم، بل إن حصل شىء من ذلك فلا يجعله العبد قصده، وغاية مراده، بل يكون القصد الأصيل منه: وجه الله، وطلب ثوابه من غير التفات للخلق، ولا رجاء لنفعهم أو مدحهم. فإن حصل شىء

من ذلك من دون قصد من العبد لم يضره شيئاً ، بل قد يكون من عاجل بشرى المؤمن .

فقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » أي : إنها لا تحصل ولا تكون إلا بالنية ، وأن مدارها على النية . ثم قال : « وإنما لكل امرئ ما نوى » أي : إنها تكون بحسب نية العبد صحتها أو فسادها ، كمالها أو نقصانها ، فمن نوى فعل الخير وقصد به المقاصد العليا — وهي ما يقرب إلى الله — فله من الثواب والجزاء الجزاء الكامل الأوفى . ومن نقصت نيته وقصده نقص ثوابه . ومن توجهت نيته إلى غير هذا المقصد الجليل فاته الخير ، وحصل على ما نوى من المقاصد الدنيئة الناقصة . ولهذا ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثالا ليقاس عليه جميع الأمور ، فقال : « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله » أي : حصل له ما نوى ، ووقع أجره على الله « ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » خص فيه المرأة التي يتزوجها بعد ما عم جميع الأمور الدنيوية لبيان أن جميع ذلك غايات دنيئة ، ومقاصد غير نافعة ، وكذلك حين سئل صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ، أو حمية ، أو ليُرَى مقامه في صف القتال « أيُّ ذلك في سبيل الله ؟ » فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وقال تعالى في اختلاف النفقة بحسب النيات (٢ : ٢٦٥ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من

أنفسهم كمثل جنة بِرَبْوَة ـ الآية) وقال : (٤:٣٨ والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) وهكذا جميع الأعمال .

والأعمال إنما تتفاضل ويعظم ثوابها بحسب مايقوم بقلب العامل من الإيمان والإخلاص ، حتى إن صاحب النية الصادقة ـ وخصوصا إذا اقترن بها مايقدر عليه من العمل ـ يلتحق صاحبها بالعامل قال تعالى : (٤ : ١٠٠ ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) وفى الصحيح مرفوعا فإذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحا مقيما » ، « إن بالمدينة أقواما ما سِرتُم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ـ أى : فى نياتهم وقلوبهم وثوابهم ـ حبسهم العذر » وإذا هم العبد بالخير ثم لم يقدر له العمل كتبت هِمَّته ونيته له حسنة كاملة . والإحسان إلى الخلق بالمال والقول والفعل خير وأجر وثواب عند الله . ولكنه يعظم ثوابه بالنية. قال تعالى : (٤ : ١١٤ لاخير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) أى : فإنه خير ، ثم قال : (ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) فرتب الأجر العظيم على فعل ذلك ابتغاء مرضاته . وفى البخارى مرفوعا « من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّاها الله عنه . ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله » فانظر كيف جعل النية الصالحة سببا قويا للرزق وأداء الله عنه ، وجعل النية السيئة سببا للتلف والإتلاف .

وكذلك تجرى النية فى المباحات والأمور الدنيوية . فإن من قصد بكسبه وأعماله الدنيوية والعادية الاستعانة بذلك على القيام بحق الله وقيامه بالواجبات والمستحبات ، واستصحب هذه النية الصالحة فى أكله وشربه ونومه وراحاته ومكاسبه : انقلبت عاداته عبادات ، وبارك الله للعبد فى أعماله ، وفتح له من أبواب الخير والرزق أمورا لا يحتسبها ولا تخطر له على بال . ومن فاتته هذه النية الصالحه لجهله أو تهاونه فلا يلومن إلا نفسه . وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنك لن تعمل عملا تبتغى به وجه الله إلا أجرت عليه ، حتى ما تجعله فى في امرأتِك » .

فعلم بهذا : أن هذا الحديث جامع لأمور الخير كلها . فحقيق بالمؤمن الذى يريد نجاة نفسه ونفعها أن يفهم معنى هذا الحديث ، وأن يكون العمل به نصب عينيه فى جميع أحواله وأوقاته .

وأما حديث عائشة : فإن قوله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ـ أو من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » فيدل بالمنطوق وبالمفهوم .

أما منطوقه : فإنه يدل على أن كل بدعة أحدثت فى الدين ليس لها أصل فى الكتاب ولا فى السنة ، سواء كانت من البدع القولية الكلامية ، كالتجهم والرفض والاعتزال وغيرها ، أو من البدع العملية كالتعبد لله بعبادات لم يشرعها الله ولا رسوله . فإن ذلك كله مردود على

أصحابه . وأهله مذمومون بحسب بدعهم وبُعدها عن الدين . فمن أخبر بغير ما أخبر الله به ورسوله ، أو تعبد بشيء لم يأذن الله به ورسوله ولم يشرعه : فهو مبتدع . ومن حَرَّم المباحات ، أو تعبد بغير الشرعيات : فهو مبتدع .

وأما مفهوم هذا الحديث : فإن من عمل عملا ، عليه أمر الله ورسوله ـ وهو التعبد لله بالعقائد الصحيحة ، والأعمال الصالحة : من واجب ومستحب : فعمله مقبول ، وسعيه مشكور .

ويستدل بهذا الحديث على أن كل عبادة فعلت على وجه منهى عنه فإنها فاسدة ؛ لأنه ليس عليها أمر الشارع ، وأن النهى يقتضى الفساد . وكل معاملة نهى الشارع عنها فإنها لاغية لا يعتد بها .

الحديث الثالث

عن تميم الدارِيِّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة . قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله . ولأئمة المسلمين وعامتهم » رواه مسلم .

كرر النبى صلى الله عليه وسلم هذه الكلمة اهتماما للمقام ، وإرشادا للأمة أن يعلموا حق العلم أن الدين كله ـ ظاهره وباطنه ـ منحصر فى النصيحة . وهى القيام التام بهذه الحقوق الخمسة .

فالنصيحة لله : الاعتراف بوحدانية الله وتفرده بصفات الكمال

على وجه لا يشاركه فيها مشارك بوجه من الوجوه ، والقيام بعبوديته ظاهرا وباطنا ، والإنابة إليه كل وقت بالعبودية ، والطلب رغبة ورهبة مع التوبة والاستغفار الدائم ؛ لأن العبد لا بد له من التقصير فى شىء من واجبات الله ، أو التجرؤ على بعض المحرمات . وبالتوبة الملازمة والاستغفار الدائم ينجبر نقصه ، ويتم عمله وقوله .

وأما النصيحة لـكتاب الله : فبحفظه وتدبره ، وتعلم ألفاظه ومعانيه والاجتهاد فى العمل به فى نفسه وفى غيره .

وأما النصيحة للرسول : فهى الإيمان به ومحبته ، وتقديمه فيها على النفس والمـال والولد ، واتباعه فى أصول الدين وفروعه ، وتقديم قوله على قول كل أحد ، والاجتهاد فى الاهتداء بهديه ، والنصر لدينه .

وأما النصيحة لأئمة المسلمين ـ وهم ولاتهم ، من الإمام الأعظم إلى الأمراء والقضاة إلى جميع من لهم ولاية عامة أو خاصة ـ : فباعتقاد ولايتهم ، والسمع والطاعة لهم ، وحث الناس على ذلك ، وبذل ما يستطيعه من إرشادهم ، وتنبيههم إلى كل ما ينفعهم وينفع الناس ، وإلى القيام بواجبهم .

وأما النصيحة لعامة المسلمين : فبأن يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه ، ويسعي فى ذلك بحسب الإمكان ، فإن من أحب شيئاً سعى له ، واجتهد فى تحقيقه وتكميله .

فالنبي صلى الله عليه وسلم فسر النصيحة بهذه الأمور الخمسة التى

تشمل القيام بحقوق الله ، وحقوق كتابه ، وحقوق رسوله ، وحقوق جميع المسلمين على اختلاف أحوالهم وطبقاتهم . فشمل ذلك الدين كله ، ولم يبق منه شيء إلا دخل فى هذا الكلام الجامع المحيط . والله أعلم .

الحديث الرابع

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال « أتى أعرابي النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : دُلَّنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة . قال : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتُؤَدِّي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان قال : والذى نفسى بيده ، لا أزيد على هذا شيئاً ولا أنقُصُ منه . فلما وَلَّى ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : مَنْ سَرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا » متفق عليه .

قد وردت أحاديث كثيرة فى هذ الأصل الكبير الذي دل عليه الحديث . ومدلولها كلها متفق أو متقارب على أن من أدى مافرض الله عليه بحسب الفروض المشتركة والفروض المختصة بالأسباب التى من وجبت فيه وجبت عليه . فمن أدى الفرائض واجتنب المحرمات استحق دخول الجنة ، والنجاة من النار . ومن اتصف بهذا الوصف فقداستحق اسم الإسلام والإيمان ، وصار من المتقين المفلحين ، وممن سلك الصراط المستقيم

ويشبه هذا ويقاربه :

الحديث الخامس

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت «يارسول الله، قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: قل: آمنت بالله، ثم استقم» رواه مسلم.

فهذا الرجل طلب من النبي صلى الله عليه وسلم كلاماً جامعاً للخير نافعاً، موصلا صاحبه إلى الفلاح. فأمره النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالإيمان بالله الذي يشمل ما يجب اعتقادَه: من عقائد الإيمان، وأصوله، وما يتبع ذلك: من أعمال القلوب، والانقياد والاستسلام لله، باطناً وظاهراً، ثم الدوام على ذلك، والاستقامة عليه إلى الممات. وهو نظير قوله تعالي: (٤١ : ٣٠ إن الذين قالوا: ربنا الله، ثم استقاموا، تتنزل عليهم الملائكة: أن لاتخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون). فرتب على الإيمان والاستقامة: السلامة من جميع الشرور، وحصول الجنة وجميع المحاب.

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة الكثيرة على أن الإيمان يشمل ما في القلوب من العقائد الصحيحة، وأعمال القلوب: من الرغبة في الخير، والرهبة من الشر، وإرادة الخير، وكراهة الشر. ومن أعمال الجوارح. ولا يتم ذلك إلا بالثبات عليه.

الحديث السادس

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» متفق عليه . وزاد الترمذى والنسائى : «والمؤمن من أمِنَه الناس على دمائهم وأموالهم» وزاد البيهقى : «والمجاهد من جاهد نفسه فى طاعة الله» .

ذكر فى هذا الحديث كمال هذه الأسماء الجليلة ، التى رتب الله ورسوله عليها سعادة الدنيا والآخرة. وهى الإسلام والإيمان، والهجرة والجهاد . وذكر حدودها بكلام جامع شامل ، وأن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

وذلك أن الإسلام الحقيقى : هو الاستسلام لله ، وتكميل عبوديته والقيام بحقوقه ، وحقوق المسلمين . ولا يتم الإسلام حتى يحب للمسلمين ما يحب لنفسه . ولا يتحقق ذلك إلا بسلامتهم من شر لسانه وشر يده . فإن هذا أصل هذا الفرض الذى عليه للمسلمين . فمن لم يسلم المسلمون من لسانه أو يده كيف يكون قائماً بالفرض الذى عليه لإخوانه المسلمين ؟ فسلامتهم من شره القولى والفعلى عنوان على كمال إسلامه .

وفسر المؤمن بأنه الذى يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم ؛ فإن الإيمان إذا دار فى القلب وامتلأ به ، أوجب لصاحبه القيام بحقوق

الإيمان التى من أهمها : رعاية الأمانات ، والصدق فى المعاملات ، والورع عن ظلم الناس فى دمائهم وأموالهم . ومن كان كذلك عرف الناس هذا منه ، وأمنوه على دمائهم وأموالهم ، ووثقوا به ، لما يعلمون منه من مراعاة الأمانات ؛ فإن رعاية الأمانة من أخص واجبات الإيمان ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « لا إيمان لمن لا أمانة له » .

وفسر صلى الله عليه وسلم الهجرة التى هى فرض عين على كل مسلم بأنها هجرة الذنوب والمعاصى . وهذا الفرض لا يسقط عن كل مكلف فى كل حال من أحواله ؛ فإن الله حرم على عباده انتهاك المحرمات ، والإقدام على المعاصى . والهجرة الخاصة التى هى الانتقال من بلد الكفر أو البدع إلى بلد الإسلام ، والسنة جزء من هذه الهجرة ، وليست واجبة على كل أحد ، وإنما تجب بوجود أسبابها المعروفة .

وفسر المجاهد بأنه الذي جاهد نفسه على طاعة الله ؛ فإن النفس مَيَّالة إلي الكسل عن الخيرات ، أمارة بالسوء ، سريعة التأثر عند المصائب ، وتحتاج إلى صبر وجهاد فى إلزامها طاعة الله ، وثباتها عليها ، ومجاهدتها عن معاصى الله ، وردعها عنها ، وجهادها على الصبر عند المصائب . وهذه هى الطاعات : امتثال المأمور ، واجتناب المحظور ، والصبر على المقدور .

فالمجاهد حقيقة : من جاهدها على هذه الأمور ؛ لتقوم بواجبها ووظيفتها .

ومن أشرف هذا النوع وأجلّه : مجاهدتُها على قتال الأعداء ، ومجاهدتهم بالقول والفعل ؛ فإن الجهاد فى سبيل الله ذروة سنام الدين .

فهذا الحديث من قام بما دل عليه فقد قام بالدين كله : « من سلم المسلمون من لسانه ويده ، وأمنه الناس على دمائهم وأموالهم ، وهجر ما نهى الله عنه ، وجاهد نفسه على طاعة الله ، فإنه لم يبق من الخير الدينى والدنيوى الظاهرى والباطنى شيئا إلا فعله ، ولا من الشر شيئا إلا تركه .

والله الموفق وحده .

الحديث السابع

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أربع من كُنَّ فيه كان منافقا خالصا . ومن كانت فيه خَصْلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتُمِنَ خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدَر ، وإذا خاصم فجر » متفق عليه .

النفاق أساس الشر . وهو أن يظهر الخير ، ويبطن الشر . هذا الحدُّ يدخل فيه النفاق الأكبر الاعتقادى ، الذى يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر . وهذا النوع مُخرج من الدين بالكلية ، وصاحبه فى الدَّرْك الأسفل من النار . وقد وصف الله هؤلاء المنافقين بصفات الشر كلها : من الكفر ، وعدم الإيمان ، والاستهزاء بالدين وأهله ، والسخرية منهم ، والميل بالكلية إلى أعداء الدين ؛ لمشاركتهم لهم فى

عداوة دين الإسلام . وهم موجودون فى كل زمان ، ولا سيما فى هذا الزمان الذى طغت فيه المادية والإلحاد والإباحية .

والمقصود هنا : القسم الثانى من النفاق الذى ذكر فى هذا الحديث فهذا النفاق العملى ـ وإن كان لايخرج من الدين بالكلية ـ فإنه دهليز الكفر ، ومن اجتمعت فيه هذه الخصال الأربع فقد اجتمع فيه الشر، وخلصت فيه نعوت المنافقين، فإن الصدق ، والقيام بالأمانات ، والوفاء بالعهود ، والورع عن حقوق الخلق هي جماع الخير ، ومن أخص أوصاف المؤمنين . فمن فقد واحدة منها فقد هدم فرضاً من فروض الإسلام والإيمان ، فكيف بجميعها ؟ .

فالكذب فى الحديث يشمل الحديث عن الله والحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى من كذب عليه متعمداً فليتبوأ مقعده من النار (٧:٦١ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب؟) ويشمل الحديث عما يخبر به من الوقائع الكلية والجزئية . فمن كان هذا شأنه فقد شارك المنافقين فى أخص صفاتهم ، وهى الكذب الذى قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « إياكم والكذب ، فإن الكذب يدعو إلى الفجور ، وإن الفجور يدعو إلى النار . ولا يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » ومن كان إذا ائتمن على الأموال والحقوق والأسرار خانها ، ولم يقم بأمانته ، فأين إيمانه ؟ وأين حقيقة إسلامه ؟ وكذلك من ينكث العهود التى بينه وبين الله ، والعهود التى بينه

وبين الخلق متصف بصفة خبيثة من صفات المنافقين . وكذلك من لا يتورع عن أموال الخلق وحقوقهم ، ويغتنم فرصها ، ويخاصم فيها بالباطل ليثبت باطلا ، أو يدفع حقا . فهذه الصفات لا تكاد تجتمع في شخص ومعه من الإيمان ما يجزى أو يكفى ، فإنها تنافى الإيمان أشد المنافاة .

واعلم أن من أصول أهل السنة والجماعة : أنه قد يجتمع فى العبد خصال خير وخصال شر ، وخصال إيمان وخصال كفر أو نفاق . ويستحق من الثواب والعقاب بحسب ما قام به من موجبات ذلك وقد دل على هذا الأصل نصوص كثيرة من الكتاب والسنة . فيجب العمل بكل النصوص ، وتصديقها كلها . وعلينا أن نتبرأ من مذهب الخوارج الذين يدفعون ماجاءت به النصوص : من بقاء الإيمان وبقاء الدين ، ولو فعل الإنسان من المعاصى ما فعل ، إذا لم يفعل شيئاً من المكفرات التى تخرج صاحبها من الإيمان . فالخوارج يدفعون ذلك كله ، ويرون من فعل شيئاً من الكبائر ومن خصال الكفر أو خصال النفاق خارجا من الدين ، مخلداً فى النار . وهذا مذهب باطل بالكتاب والسنة ، وإجماع سلف الأمة .

الحديث الثامن

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يأتى الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول: من خلق الله ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ، وَلْيَنْتَهِ » . وفى لفظ « فليقل : آمنت بالله ورسله » متفق عليه . وفى لفظ « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقولون : من خلق الله ؟ »

احتوى هذا الحديث على أنه لا بد أن يلقى الشيطان هذا الإيراد الباطل : إما وسوسة محصنة ، أوعلى لسان شياطين الإنس وملاحدتهم . وقد وقع كما أخبر ، فإن الأمرين وقعا ، لا يزال الشيطان يدفع إلى قلوب من ليست لهم بصيرة هذا السؤال الباطل ، ولا يزال أهل الإلحاد يلقون هذه الشبهة التى هى أبطل الشبه ، ويتكلمون عن العلل وعن مواد العالم بكلام سخيف معروف .

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث العظيم إلى دفع هذا السؤال بأمور ثلاثة : بالانتهاء ، والتعوذ من الشيطان ، وبالإيمان .

أما الانتهاء ـ وهو الأمر الأول ـ : فإن الله تعالى جعل للأفكار والعقول حداً تنتهى إليه ، ولا تتجاوزه . ويستحيل لو حاولت مجاوزته أن تستطيع ، لأنه محال ، ومحاولة المحال من الباطل والسفه ، ومن أمحل المحال التسلسل فى المؤثرين والفاعلين . فإن المخلوقات لها ابتداء ، ولها انتهاء . وقد تتسلسل فى كثير من أمورها حتى تنتهى إلى الله الذى أوجدها وأوجد ما فيها من الصفات والمواد والعناصر (٥٣ : ٤٢ وأن

إلي ربك المنتهى) فإذا وصلت المقول إلى الله تعالي وقفت وانتهت ، فإنه الأول الذى ليس قبله شيء ، والآخر الذى ليس بعده شيء . فأوّليته تعالي لا مبتدأ لها مهما فرضت الأزمان والأحوال . وهو الذى أوجد الأزمان والأحوال والعقول التى هى بعض قوى الإنسان . فكيف يحاول العقل أن يتشبث فى إيراد هذا السؤال الباطل . فالفرض عليه المحتم فى هذه الحال : الوقوف ، والانتهاء.

الأمر الثانى : التعوذ بالله من الشيطان . فإن هذا من وساوسه وإلقائه فى القلوب : ليشكك الناس فى الإيمان بربهم . فعلى العبد إذا وجد ذلك : أن يستعيذ بالله منه . فمن تعوذ بالله بصدق وقوة أعاذه الله وطرد عنه الشيطان ، واضمحلت وساوسه الباطلة .

الأمر الثالث : أن يدفعه بما يضاده من الإيمان بالله ورسله ، فإن الله ورسله أخبروا بأنه تعالى الأول الذى ليس قبله شيء ، وأنه تعالى المتفرد بالوحدانية ، وبالخلق والإيجاد للموجودات السابقة واللاحقة .

فهذا الإيمان الصحيح الصادق اليقينى يدفع جميع ما يضاده من الشبه المنافية له ، فإن الحق يدفع الباطل . والشكوك لا تعارض اليقين .

فهذه الأمور الثلاثة التى ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم تبطل هذه الشبه التى لا تزال على ألسنة الملاحدة ، يلقونها بعبارات متنوعة . فأمر بالانتهاء الذى يبطل التسلسل الباطل ، وبالتعوذ من الشيطان الذى هو الملقي لهذه الشبهة ، وبالإيمان الصحيح الذى يدفع كل

ما يضاده من الباطل. والحمد لله. فبالانتهاء: قطع الشر مباشرة. وبالاستفادة: قطع السبب الداعي إلى الشر. وبالإيمان اللجأ والاعتصام بالاعتقاد الصحيح اليقيني الذى يدفع كل معارض.

وهذه الأمور الثلاثة هى جماع الأسباب الدافعة لكل شبهة تعارض الإيمان. فينبغي العناية بها فى كل ما عرض للإيمان من شبهة واشتباه يدفعه العبد مباشرة بالبراهين الدالة على إبطاله، وبإثبات ضده وهو الحق الذى ليس بعده إلا الضلال، وبالتعوذ بالله من الشيطان الذى يدفع إلى القلوب فتن الشبهات، وفتن الشهوات، ليزلزل إيمانهم، ويوقعهم بأنواع المعاصى. فبالصبر واليقين: ينال العبد السلامة من فتن الشهوات، ومن فتن الشبهات. والله هو الموفق الحافظ.

الحديث التاسع

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل شيء بقدَر، حتى العَجْز والكَيْس» رواه مسلم.

هذا الحديث متضمن لأصل عظيم من أصول الإيمان الستة: وهو الإيمان بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، عامه وخاصه، سابقه ولاحقه، بأن يعترف العبد أن علم الله محيط بكل شيء، وأنه علم أعمال العباد خيرها وشرها، وعلم جميع أمورهم وأحوالهم، وكتب ذلك فى اللوح المحفوظ. كما قال تعالى (٢٢ : ٧٠ ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء

والأرض؟ إن ذلك في كتاب، إن ذلك على الله يسير) ثم إن الله ينفذ هذه الأقدار في أوقاتها بحسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته، الشاملتان لكل ما كان وما يكون، الشاملتان للخلق والأمر، وأنه مع ذلك، ومع خلقه للعباد وأفعالهم وصفاتهم، فقد أعطاهم قدرة وإرادة تقع بها أفعالهم بحسب اختيارهم، لم يجبرهم عليها. وهو الذي خلق قدرتهم ومشيئتهم. وخالق السبب التام خالق للمسبب. فأفعالهم وأقوالهم تقع بقدرتهم ومشيئتهم اللتين خلقهما الله فيهم، كما خلق بقية قواهم الظاهرة والباطنة. ولكنه تعالى يَسَّرَ كلا لما خلق له.

فمن وَجَّه وجهه وقصده لربه: حَبَّب إليه الإيمان، وزَيَّنه في قلبه، وكَرَّه إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين، فتمت عليه نعم الله من كل وجه.

ومن وجّه وجهه لغير الله، بل تولى عدوه الشيطان: لم ييسره لهذه الأمور، بل وَلاَّه الله ما تولى، وخذله، ووكله إلى نفسه، فضَلَّ وغوى وليس له على ربه حجة، فإن الله أعطاه جميع الأسباب التي يقدر بها على الهداية، ولكنه اختار الضلالة على الهدى، فلا يلومن إلا نفسه. قال تعالى: (٧:٣٠ فريقاً هدى، وفريقاً حق عليهم الضلالة، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) وقال: (٥:١٦ يهدي به الله من اتبع رضوانه سُبُلَ السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم) وهذا القدر يأتي على جميع أحوال العبد وأفعاله وصفاته، حتى

العجز والكيس . وهما الوصفان المتضادان التي ينال بالأول منهما ـ وهو العجز ـ : الخيبة والخسران ، وبالثاني ـ وهو الكيس ـ : الجد في طاعة الرحمن . والمراد هنا : العجز الذي يلام عليه العبد ، وهو عدم الإرادة ، وهو الكسل ، لا العجز الذي هو عدم القدرة . وهذا هو معنى الحديث الآخر « اعملوا ؛ فكل مُيَسَّرٌ لما خُلِق له » .

أما أهل السعادة : فييسرون لعمل السعادة ، وذلك بكيسهم وتوفيقهم ولطف الله بهم . والكيس والعاجز هما المذكوران في قوله صلى الله عليه وسلم : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز : من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني » .

الحديث العاشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من دعا إلى هُدَى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً » رواه مسلم .

هذا الحديث ـ وما أشبهه من الأحاديث ـ فيه : الحث على الدعوة إلى الهدى والخير ، وفضل الداعي ، والتحذير من الدعاء إلى الضلالة والغيّ ، وعظم جرم الداعي وعقوبته .

والهدى : هو العلم النافع ، والعمل الصالح .

فكل من علم علماً أو وَجَّه المتعلمين إلى سلوك طريقة يحصل لهم فيها علم : فهو داع إلى الهدى .

وكل من دعا إلى عمل صالح يتعلق بحق الله ، أو بحقوق الخلق العامة والخاصة : فهو داع إلى الهدى .

وكل من أبدى نصيحة دينية أو دنيوية يتوسل بها إلى الدين: فهو داع إلى الهدى .

وكل من اهتدى فى علمه أو عمله ، فاقتدى به غيره : فهو داع إلى الهدى .

وكل من تقدم غيره بعمل خيرى ، أو مشروع عام النفع : فهو داخل فى هذا النص .

وعكس ذلك كله : الداعى إلى الضلالة .

فالداعون إلى الهدي : هم أئمة المتقين ، وخيار المؤمنين .

والداعون إلى الضلالة : هم الأئمة الذين يدعون إلى النار .

وكل من عاون غيره على البر والتقوى : فهو من الداعين إلى الهدى .

وكل من أعان غيره على الإثم والعدوان : فهو من الداعين إلى الضلالة .

الحديث الحادى عشر

عن معاوية رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » متفق عليه .

هذا الحديث من أعظم فضائل العلم ، وفيه : أن العلم النافع علامة على سعادة العبد ، وأن الله أراد به خيراً .

والفقه فى الدين يشمل الفقه فى أصول الإيمان ، وشرائع الإسلام والأحكام ، وحقائق الإحسان . فإن الدين يشمل الثلاثة كلها ، كما فى حديث جبريل لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان ، وأجابه صلى الله عليه وسلم بحدودها . ففسر الإيمان بأصوله الستة . وفسر الإسلام بقواعده الخمس . وفسر الإحسان بـ « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فيدخل فى ذلك التفقه فى العقائد ، ومعرفة مذهب السلف فيها ، والتحقق به ظاهراً وباطناً ، ومعرفة مذاهب المخالفين ، وبيان مخالفتها للكتاب والسنة .

ودخل فى ذلك : علم الفقه ، أصوله وفروعه ، أحكام العبادات والمعاملات ، والجنايات وغيرها .

ودخل فى ذلك : التفقه بحقائق الإيمان ، ومعرفة السير والسلوك إلى الله ، الموافقة لما دل عليه الكتاب والسنة .

وكذلك يدخل فى هذا : تعلُّم جميع الوسائل المعينة على الفقه فى الدين كعلوم العربية بأنواعها .

فمن أراد الله به خيراً فقهه فى هذه الأمور ، ووفقه لها .

ودل مفهوم الحديث على أن من أعرض عن هذه العلوم بالكلية

فإن الله لم يرد به خيراً ، لحرمانه الأسباب التي تنال بها الخيرات ، وتكتسب بها السعادة .

الحديث الثاني عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير ، وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف . وفى كلٍّ خير . احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تَعْجَز . . وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا ، كان كذا وكذا ، ولكن قل : قدَّر الله ، وما شاء فعل ، فإن لَوْ تفتح عمل الشيطان » رواه مسلم .

هذا الحديث اشتمل على أصول عظيمة وكلمات جامعة .

فمنها : إثبات المحبة صفة لله ، وأنها متعلقة بمحبوباته وبمن قام بها ودل على أنها تتعلق بإرادته ومشيئته ، وأيضاً تتفاضل . فمحبته للمؤمن القوى أعظم من محبته للمؤمن الضعيف .

ودل الحديث على أن الإيمان يشمل العقائد القلبية ، والأقوال والأفعال ، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ؛ فإن الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها : قول : « لا إله إلا الله » وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق . والحياء شعبة منه . وهذه الشعب التي ترجع إلى الأعمال الباطنة والظاهرة كلها من الإيمان . فمن قام بها حق القيام ، وكمّل

نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وكمّل غيره بالتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر : فهو المؤمن القوى الذى حاز أعلى مراتب الإيمان . ومن لم يصل إلى هذه المرتبة : فهو المؤمن الضعيف .

وهذا من أدلة السلف على أن الإيمان يزيد وينقص . وذلك بحسب علوم الإيمان ومعارفه ، وبحسب أعماله .

وهذا الأصل قد دل عليه الكتاب والسنة فى مواضع كثيرة .

ولما فاضل النبى صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين قويهم وضعيفهم خشى من توهم القدح فى المفضول ، فقال : « وفى كل خير » وفى هذا الاحتراز فائدة نفيسه ، وهى أن على من فاضل بين الأشخاص أو الأجناس أو الاعمال أن يذكر وجه التفضيل ، وجهة التفضيل . ويحترز بذكر الفضل المشترك بين الفاضل والمفضول ، لئلا يتطرق القدح إلى المفضول وكذلك فى الجانب الآخر إذا ذكرت مراتب الشر والأشرار ، وذكر التفاوت بينهما . فينبغى بعد ذلك أن يذكر القدر المشترك بينهما من أسباب الخير أو الشر . وهذا كثير فى الكتاب والسنة

وفى هذا الحديث : أن المؤمنين يتفاوتون فى الخيرية ، ومحبة الله والقيام بدينه ، وأنهم فى ذلك درجات(٤٦ : ١٩ ولكل درجات مما عملوا) ويجمعهم ثلاثة أقسام : السابقون إلى الخيرات ، وهم الذين قاموا بالواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، وفضول المباحات ، وكملوا ما باشروه من الأعمال ، واتصفوا بجميع صفات

الـكمال . ثم المقتصدون الذين اقتصروا على القيام بالواجبات وترك المحظورات . ثم الظالمون لأنفسهم ، الذين خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً .

وقوله صلى الله عليه وسلم « احرص على ما ينفعك واستعن بالله » كلام جامع نافع ، مُحتوٍ على سعادة الدنيا والآخرة .

والأمور النافعة قسمان : أمور دينية ، وأمور دنيوية . والعبد محتاج إلى الدنيوية كما أنه محتاج إلى الدينية . فدار سعادته وتوفيقه على الحرص والاجتهاد فى الأمور النافعة منهما ، مع الاستعانة بالله تعالى فتى حرص العبد على الأمور النافعة واجتهد فيها ، وسلك أسبابها وطرقها ، واستعان بربه فى حصولها وتكميلها : كان ذلك كماله ، وعنوان فلاحه . ومتى فاته واحد من هذه الأمور الثلاثة : فاته من الخير بحسبها فمن لم يكن حريصا على الأمور النافعة ، بل كان كسلانا لم يدرك شيئاً . فالكسل هو أصل الخيبة والفشل . فالـكسلان لا يدرك خيراً ، ولا ينال مكرمة ، ولا يحظى بدين ولا دنيا ، ومتى كان حريصا ، ولـكن على غير الأمور النافعة : إما على أمور ضارة ، أو مفوتة للـكمال كان ثمرة حرصه الخيبة ، وفوات الخير ، وحصول الشر والضرر ، فكم من حريص على سلوك طرق وأحوال غير نافعة لم يستفد من حرصه إلا التعب والعناء والشقاء .

ثم إذا سلك العبد الطرق النافعة ، وحرص عليها ، واجتهد فيها :

لم تتم له إلا بصدق اللجأ إلى الله، والاستعانة به على إدراكها وتكميلها وأن لا يتكل على نفسه وحوله وقوته، بل يكون اعتماده التام بباطنه وظاهره على ربه. فبذلك تهون عليه المصاعب، وتتيسر له الأحوال، وتتم له النتائج والثمرات الطيبة فى أمر الدين وأمر الدنيا، لكنه فى هذه الأحوال محتاج - بل مضطر غاية الاضطرار - إلى معرفة الأمور التى ينبغى الحرص عليها، والجد فى طلبها.

فالأمور النافعة فى الدين ترجع إلى أمرين: علم نافع، وعمل صالح.

أما العلم النافع: فهو العلم المزكى للقلوب والأرواح، المثمر لسعادة الدارين. وهو ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من حديث وتفسير وفقه، وما يعين على ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت والموضع الذى فيه الإنسان، وتعيين ذلك يختلف باختلاف الأحوال. والحالة التقريبية: أن يجتهد طالب العلم فى حفظ مختصر من مختصرات الفن الذى يشتغل فيه. فإن تعذر أو تعسر عليه حفظه لفظا، فليكرره كثيراً، متدبراً لمعانيه، حتى ترسخ معانيه فى قلبه. ثم تكون باقى كتب هذا الفن كالتفسير والتوضيح والتفريع لذلك الأصل الذى عرفه وأدركه، فإن الإنسان إذا حفظ الأصول وصار له ملكة تامة فى معرفتها هانت عليه كتب الفن كلها: صغارها وكبارها. ومن ضيع الأصول حرم الوصول.

فمن حرص على هذا الذى ذكرناه ، واستعان بالله : أعانه الله ، وبارك فى علمه ، وطريقه الذى سلكه .

ومن سلك فى طلب العلم غير هذه الطريقة النافعة : فاتت عليه الأوقات ، ولم يدرك إلا العناء ، كما هو معروف بالتجربة . والواقع يشهد به ، فإن يسر الله له معلما يحسن طريقة التعليم ، ومسالك التفهيم : تم له السبب الموصل إلى العلم .

وأما الأمر الثانى ـ وهو العمل الصالح ـ : فهو العمل الذى جمع الإخلاص لله ، والمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو التقرب إلى الله: باعتقاد ما يجب لله من صفات الكمال ، وما يستحقه على عباده من العبودية ، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله ، وتصديقه وتصديق رسوله فى كل خبر أخبرا به عما مضى ، وعما يستقبل عن الرسل ، والكتب والملائكة ، وأحوال الآخرة ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب وغير ذلك ثم يسعى فى أداء ما فرضه الله على عباده : من حقوق الله ، وحقوق خلقه ويكمل ذلك بالنوافل والتطوعات ، خصوصاً المؤكدة فى أوقاتها ، مستعينا بالله على فعلها ، وعلى تحقيقها وتكميلها ، وفعلها على وجه الإخلاص الذى لا يشوبه غرض من الأغراض النفسية . وكذلك يتقرب إلى الله بترك المحرمات ، وخصوصا التى تدعو إليها النفوس ، وتميل إليها . فيتقرب إلى ربه بتركها لله ، كما يتقرب إليه بفعل المأمورات ، فمتى وفق العبد بسلوك هذا الطريق فى العمل ، واستعان الله

على ذلك أفلح وأنجح . وكان كماله بحسب ما قام به من هذه الأمور ، ونقصه بحسب ما فاته منها .

وأما الأمور النافعة فى الدنيا : فالعبد لا بد له من طلب الرزق . فينبغى أن يسلك أنفع الأسباب الدنيوية اللائقة بحاله . وذلك يختلف باختلاف الناس ، ويقصد بكسبه وسعيه القيام بواجب نفسه، وواجب من يعوله ومن يقوم بمؤنته ، وينوى الكفاف والاستغناء بطلبه عن الخلق . وكذلك ينوى بسعيه وكسبه تحصيل ما تقوم به العبوديات المالية : من الزكاة والصدقة ، والنفقات الخيرية الخاصة والعامة مما يتوقف على المال ، ويقصد المكاسب الطيبة ، متجنبا للمكاسب الخبيثة المحرمة . فمتى كان طلب العبد وسعيه فى الدنيا لهذه المقاصد الجليلة ، وسلك أنفع طريق يراه مناسباً لحاله كانت حركاته وسعيه قربة يتقرب إلى الله بها . ومن تمام ذلك : أن لا يتكل العبد على حوله وقوته وذكائه ومعرفته ، وحذقه بمعرفة الأسباب وإدارتها ، بل يستعين بربه متوكلا عليه ، راجيا منه أن ييسره لأيسر الأمور وأنجحها ، وأقربها تحصيلا لمراده . ويسأل ربه أن يبارك له فى رزقه : فأول بركة الرزق : أن يكون مؤسساً على التقوى والنية الصالحة . ومن بركة الرزق : أن يوفق العبد لوضعه فى مواضعه الواجبة والمستحبة ومن بركة الرزق : أن لا ينسى العبد الفضل فى المعاملة ، كما قال تعالى : (٢ : ٢٣٧ ولا تنسوا الفضل بينكم) بالتيسير على الموسرين ، وإنظار

المعسرين ، والمحاباة عند البيع والشراء ، بما تيسر من قليل أو كثير . فبذلك ينال العبد خيرا كثيرا .

فإن قيل : أى المكاسب أولى وأفضل ؟

قيل : قد اختلف أهل العلم فى ذلك . فمنهم من فضل الزراعة والحراثة . ومنهم من فضل البيع والشراء . ومنهم من فضل القيام بالصناعات والحرف ونحوها . وكل منهم أدلى بحجته . ولكن هذا الحديث هو الفاصل للنزاع ، وهو أنه صلى الله عليه وسلم قال : « احرص على ماينفعك ، واستعن بالله » والنافع من ذلك معلوم أنه يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص . فمنهم من تكون الحراثة والزراعة أفضل فى حقه ، ومنهم من يكون البيع والشراء والقيام بالصناعة التى يحسنها أفضل فى حقه . فالأفضل من ذلك وغيره الأنفع .

فصلوات الله وسلامه على من أعطى جوامع الكلم ونوافعها .

ثم إنه صلى الله عليه وسلم حض على الرضا بقضاء الله وقدره ، بعد بذل الجهد ، واستفراغ الوسع فى الحرص على النافع . فإذا أصاب العبد ما يكرهه فلا ينسب ذلك إلى ترك بعض الأسباب التى يظن نفعها لو فعلها ، بل يسكن إلى قضاء الله وقدره ليزداد إيمانه ، ويسكن قلبه وتستريح نفسه ؛ فإن « لو » فى هذه الحال تفتح عمل الشيطان بنقص إيمانه بالقدر ، واعتراضه عليه ، وفتح أبواب الهم والحزن المضعف للقلب . وهذه الحال التى أرشد إليها النبى صلى الله عليه وسلم هى أعظم

الطرق لراحة القلب ، وأدعى لحصول القناعة والحياة الطيبة ، وهو الحرص على الأمور النافعة ، والاجتهاد فى تحصيلها ، والاستعانة بالله عليها ، وشكر الله على ما يسره منها ، والرضى عنه بما فات ، ولم يحصل منها .

واعلم أن استعمال « لو » يختلف باختلاف ما قصد بها . فإن استعملت فى هذه الحال التي لا يمكن استدراك الفائت فيها فإنها تفتح على العبد عمل الشيطان ، كما تقدم . وكذلك لو استعملت فى تمنى الشر والمعاصى فإنها مذمومة ، وصاحبها آثم ، ولو لم يباشر للمعصية . فإنه تمنى حصولها .

وأما إذا استعملت فى تمنى الخير أو فى بيان العلم النافع فإنها محمودة. لأن الوسائل لها أحكام المقاصد .

وهذا الأصل الذى ذكره النبي صلى الله عليه وسلم ـ وهو الأمر بالحرص على الأمور النافعة ، ومن لازمه اجتناب الأمور الضارة مع الاستعانة بالله ـ يشمل استعماله والأمر به فى الأمور الجزئية المختصة بالعبد ومتعلقاته ، ويشمل الأمور الكلية المتعلقة بعموم الأمة . فعليهم جميعاً أن يحرصوا على الأمور النافعة . وهى المصالح الكلية والاستعداد لأعدائهم بكل مستطاع مما يناسب الوقت ، من القوة المعنوية والمادية ، ويبذلوا غاية مقدورهم فى ذلك ، مستعينين بالله على تحقيقه وتكميله ،

ودفع جميع ما يضاد ذلك . وشرح هـذه الجملة يطول وتفاصيلها معروفة .

وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث بين الإيمان بالقضاء والقدر ، والعمل بالأسباب النافعة ، وهذان الأصلان دل عليهما الكتاب والسنة فى مواضع كثيرة . ولا يتم الدين إلا بهما . بل لا تتم الأمور المقصودة كلها إلا بها ، لأن قوله « احرص على ما ينفعك » أمر بكل سبب دينى ودنيوى ، بل أمر بالجد والاجتهاد فيه والحرص عليه ، نية وهمة ، فعلا وتدبيراً .

وقوله : « واستعن بالله » إيمان بالقضاء والقدر ، وأمر بالتوكل على الله الذى هو الاعتماد التام على حوله وقوته تعالى فى جلب المصالح ودفع المضار ، مع الثقة التامة بالله فى نجاح ذلك . فالمتبع للرسول صلى الله عليه وسلم يتعين عليه أن يتوكل على الله فى أمر دينه ودنياه ، وأن يقوم بكل سبب نافع بحسب قدرته وعلمه ومعرفته والله المستعان .

الحديث الثالث عشر

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يَشُدُّ بعضُه بعضا ـ وشبك بين أصابعه » متفق عليه .

هذا حديث عظيم ، فيه الخبر من النبي صلى الله عليه وسلم عن المؤمنين أنهم على هذا الوصف . ويتضمن الحث منه على مراعاة هذا الأصل ، وأن يكونوا إخوانا متراحمين متحابين متعاطفين ، يحب كل منهم للآخر ما يحب لنفسه ، ويسعي فى ذلك ، وأن عليهم مراعاة المصالح الكلية الجامعة لمصالحهم كلهم، وأن يكونوا على هذا الوصف فإن البنيان المجموع من أساسات وحيطان محيطة كلية وحيطان تحيط بالمنازل المختصة ، وما تتضمنه من سقوط وأبواب ومصالح ومنافع . كل نوع من ذلك لا يقوم بمفرده حتى ينضم بعضها إلى بعض . كذلك المسلمون يجب أن يكونوا كذلك . فيراعوا قيام دينهم وشرائعه وما يقوّم ذلك ويقويه ، ويزيل موانعه وعوارضه .

فالفروض العينية : يقوم بها كل مكلف، لا يسع مكلفا قادرا تركها أو الإخلال بها . وفروض الكفايات: يجعل فى كل فرض منها من يقوم به من المسلمين ، بحيث تحصل بهم الكفاية ، ويتم بهم المقصود المطلوب . قال تعالى فى الجهاد : (٩: ١٢٢ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفَر من كل فرقة منهم طائفة : ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم) وقال تعالى : (٣ : ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) وأمر تعالى بالتعاون على البر والتقوى فالمسلمون قصدهم ومطلوبهم واحد ، وهو قيام مصالح دينهم ودنياهم التى لا يتم الدين إلا بها . وكل طائفة تسعى فى تحقيق مهمتها بحسب

ما يناسبها ويناسب الوقت والحال . ولا يتم لهم ذلك إلا بعقد المشاورات والبحث عن المصالح الكلية . وبأى وسيلة تدرك ، وكيفية الطرق إلى سلوكها ، وإعانة كل طائفة للأخرى فى رأيها وقولها وفعلها وفى دفع المعارضات والمعوقات عنها ، فمنهم طائفة تتعلم . وطائفة تعلم ، ومنهم طائفة تخرج إلى الجهاد بعد تعلمها لفنون الحرب . ومنهم طائفة ترابط ، وتحافظ على الثغور ، ومسالك الأعداء ومنهم طائفة تشتغل بالصناعات المخرجة للأسلحة المناسبة لكل زمان بحسبه . ومنهم طائفة تشتغل بالحراثة والزراعة والتجارة والمكاسب المتنوعة ، والسعى فى الأسباب الاقتصادية . ومنهم طائفة تشتغل بدرس السياسة وأمور الحرب والسلم ، وما ينبغى عمله مع الأعداء مما يعود إلى مصلحة الإسلام والمسلمين ، وترجيح أعلى المصالح على أدناها ، ودفع أعلى المضار بالنزول إلى أدناها ، والموازنة بين الأمور ، ومعرفة حقيقة المصالح والمضار ومراتبها .

وبالجملة ، يسعون كلهم لتحقيق مصالح دينهم ودنياهم ، متساعدين متساندين ، يرون الغاية واحدة ، وإن تباينت الطرق ، والمقصود واحد ، وإن تعددت الوسائل إليه .

فما أنفع العمل بهذا الحديث العظيم الذى أرشد فيه هذا النبى الكريم أمته إلى أن يكونوا كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

ولهذا حث الشارع على كل ما يقوى هذا الأمر ، وما يوجب المحبة بين المؤمنين ، وما به يتم التعاون على المنافع ، ونهى عن التفرق والتمادى ، وتشتيت الكلمة فى نصوص كثيرة حتى عد هذا أصلا عظيما من أصول الدين تجب مراعاته واعتباره وترجيحه على غيره والسعى إليه بكل ممكن .

فنسأل الله تعالى أن يحقق للمسلمين هذا الأصل ويؤلف بين قلوبهم ، ويجعلهم يدا واحدة على من ناوأهم وعاداهم . إنه كريم .

الحديث الرابع عشر

عن أبى موسى رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه سائل أو طالب حاجة ، قال : اشفعوا فلتؤجروا ، ويقضى الله على لسان رسوله ما شاء » متفق عليه .

وهذا الحديث متضمن لأصل كبير ، وفائدة عظيمة ، وهو أنه ينبغى للعبد أن يسعى فى أمور الخير سواء أثمرت مقاصدها ونتائجها أو حصل بعضها ، أولم يتم منها شىء وذلك كالشفاعة لأصحاب الحاجات عند الملوك والكبراء ، ومن تعلقت حاجاتهم بهم فإن كثيراً من الناس يمتنع من السعى فيها إذا لم يعلم قبول شفاعته . فيفوّت على نفسه خيراً كثيراً من الله ، ومعروفاً عند أخيه المسلم . فلهذا أمر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يساعدوا أصحاب الحاجة بالشفاعة لهم عنده

ليتعجلوا الأجر عند الله ، لقوله : « اشفعوا تؤجروا » فإن الشفاعة الحسنة محبوبة لله ، ومرضية له . قال تعالى : (٤ : ٨٥ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها) ومع تعجله للأجر الحاضر فإنه أيضاً يتعجل الإحسان وفعل المعروف مع أخيه ، ويكون له بذلك عنده يد .

وأيضاً ، فلعل شفاعته تكون سبباً لتحصيل مراده من المشفوع له أو لبعضه ، كما هو الواقع . فالسعي في أمور الخير والمعروف التي يحتمل أن تحصل أو لا تحصل خير عاجل ، وتعويد للنفوس على الإعانة على الخير ، وتمهيد للقيام بالشفاعات التي يتحقق أو يُظن قبولها .

وفيه من الفوائد : السعي في كل ما يزيل اليأس ، فإن الطلب والسعي عنوان على الرجاء والطمع في حصول المراد ، وضده بضده ، وفي الحديث دليل على الترغيب في توجيه الناس إلى فعل الخير ، وأن الشفاعة لا يجب على المشفوع عنده قبولها إلا أن يشفع في إيصال الحقوق الواجبة ، فإن الحق الواجب يجب أداؤه وإيصاله إلى مستحقه ، ولو لم يشفع فيه . ويتأكد ذلك مع الشفاعة .

وفيه أيضاً : رحمة النبي صلى الله عليه وسلم في حصول الخير لأمته بكل طريق . وهذا فرد من آلاف مؤلفة تدل على كمال رحمته ورأفته صلى الله عليه وسلم ، فإن جميع الخير والمنافع العامة والخاصة لم تنلها الأمة إلا على يده وبوساطته وتعليمه وإرشاده ، كما أنه أرشدهم لدفع الشرور

والأضرار العامة والخاصة بكل طريق . فلقد بلّغ وأدّى الأمانة ، ونصح الأمة صلوات الله وسلامه وبركته عليه وعلى آله وصحبه .

قوله : « ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء » قضاؤه تعالى نوعان: قضاء قدرى ، يشمل الخير والشر والطاعات والمعاصى ، بل يشمل جميع ما كان وما يكون ، وجميع الحوادث السابقة واللاحقة . وأخص منه القضاء القدرى الدينى الذى يختص بما يحبه الله ويرضاه ، وهـذا الذى يقضى على لسان نبيه من القسم الثانى ؛ إذ هو صلى الله عليه وسلم عبد رسول ، قد وفّى مقام العبودية ، وكمل مراتب الرسالة ، فـكل أقواله وأفعاله وهديه وأخلاقه عبودية لله متعلقة بمحبوبات الله تعالى . ولم يكن فى حقه صلى الله عليه وسلم شيء مباح محض لا ثواب فيه ولا أجر فضلا عما ليس بمأمور . وهذا شأن العبد الرسول الذي اختار صلى الله عليه وسلم هذه المرتبة التى هى أعلى المراتب حين خير بين أن يكون رسولا ملـكا ، أو عبدا رسولا .

الحديث الخامس عشر

عن عائشة رضى الله عنها : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أنزلوا الناس منازلهم » رواه أبو داود .

ياله من حديث حكيم . فيـه الحث لأمته على مراعاة الحـكمة . فإن الحـكمة وضع الأشياء مواضعها ، وتنزيلها منازلها . والله تعالى

حكيم فى خلقه وتقديره ، وحكيم فى شرعه وأمره ونهيه وقد أمر عباده بالحكمة ومراعاتها فى كل شىء ، وأوامر النبى صلى الله عليه وسلم وإرشاداته كلها تدور على الحكمة .

فنها : هذا الحديث الجامع ، إذ أمر أن ننزل الناس منازلهم . وذلك فى جميع المعاملات ، وجميع المخاطبات . والتعلم والتعليم .

فمن ذلك : أن الناس قسمان : قسم لهم حق خاص ، كالوالدين والأولاد والأقارب ، والجيران والأصحاب والعلماء ، والمحسنين بحسب إحسانهم العام والخاص . فهذا القسم تنزيلهم منازلهم : القيام بحقوقهم المعروفة شرعا وعرفا ، من البر والصلة والإحسان والتوقير والوفاء والمواساة ، وجميع ما لهم من الحقوق ، فهؤلاء يميزون عن غيرهم بهذه الحقوق الخاصة .

وقسم ليس لهم مزية اختصاص بحق خاص ، وإنما لهم حق الإسلام وحق الإنسانية . فهؤلاء حقهم المشترك : أن تمنع عنهم الأذى والضرر بقول أو فعل ، وأن تحب للمسلمين ما تحب لنفسك من الخير وتكره لهم ما تكره لها من الشر . بل يجب منع الأذى عن جميع نوع الإنسان وإيصال ما تقدر عليه لهم من الإحسان .

ومما يدخل فى هذا : أن يعاشر الخلق بحسب منازلهم . فالكبير له التوقير والاحترام . والصغير يعامله بالرحمة والرقة المناسبة لحاله : والنظير يعامله بما يحب أن يعامله به . وللأم حق خاص بها ، وللزوجة

حق آخر ، ويعامل من يُدِل عليه ويثق به ، ويتوسع معه ، مالا يعامل به من لا يثق به ولا يدل عليه. ويتكلم مع الملوك وأرباب الرئاسات بالكلام اللين المناسب لمراتبهم . ولهذا قال تعالى لموسى وهرون : (٢٠:٤٣،٤٤ اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى) ويعامل العلماء بالتوقير والإجلال والتعلم ، والتواضع لهم ، وإظهار الافتقار والحاجة إلى علمهم النافع ، وكثرة الدعاء لهم ، خصوصاً وقت تعليمهم وفتواهم الخاصة والعامة .

ومن ذلك : أمر الصغار بالخير ، ونهيهم عن الشر بالرفق والترغيب ، وبذل ما يناسب من الدنيا لتنشيطهم وتوجيههم إلى الخير ، واجتناب العنف القولى والفعلى . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « مُروا أولادكم بالصلاة لسبع سنين ، واضربوهم عليها لعشر » وكذلك سلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المؤلفة قلوبهم — من العطاء الدنيوى الكثير — مايحصل به التأليف ، ويترتب عليه من المصالح . ولم يفعل ذلك مع من هو معروف بالإيمان الصادق تنزيلا للناس منازلهم .

وكذلك مخاطبة الزوجة والأولاد الصغار بالخطاب اللائق بهم الذى فيه بسطهم ، وإدخال السرور عليهم .

وكذلك من تنزيل الناس منازلهم : أن تجعل الوظائف الدينية

والدنيوية والممتزجة منهما للأكفاء المتميزين ، الذين يفضلون غيرهم في ولاية تلك الوظيفة . فمعلوم أن ولاية الملك : أن الواجب فيها خصوصاً ـ وفي غيرها عموماً ـ مشاورة أهل الحل والعقد في تولية من يصلح لها ممن جمع بين القوة والشجاعة والحلم ، ومعرفة السياسة الداخلية والخارجية ، ومن له القوة الكافية لتنفيذ العدل ، وإيصال الحقوق إلى أهلها ، وردع الظلمة والمجرمين ، وغير ذلك مما يدخل في الولاية .

وكذلك ولاية القضاء : يختار لها الأعلم بالشرع وبالواقع ، الأفضل في دينه وعقله وصفاته الحميدة .

وكذلك ولاية الإمامة في المساجد في الجمعة والجماعة : يختار لها الأعلم بأحكام العبادات الأتقى ، ثم الأمثل فالأمثل ـ وكذلك ولاية قيادة الجيوش : يختار لها أهل القوة والشجاعة والرأي والنصح ، والمعرفة لفنون الحرب وأدواتها ، وما يتبع ذلك مما تتوقف عليه هذه الوظيفة المهمة التي هي من أهم الوظائف وأخطرها ، إلى غير ذلك من الولايات الكبار والصغار . فإنها داخلة في قوله تعالى : (٤ : ٥٨ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وهذه الولايات من أعظم الأمانات . فيتعين أن تؤدى إلى أهلها ، وأن يوظف فيها أهل الكفاءة بها . وكل وظيفة لها أكفاء مختصون . وهو داخل في هذا الحديث الشريف .

وكذلك يدخل في ذلك معاملة العصاة والمجرمين . فمن رتب

الشارع على جرمه عقوبة من حَدّ ونحوه تعين ما عينه الشارع ، لأنه هو عين المصلحة العامة الشاملة . ومن لم يعين له عقوبة عُزِّر بحسب حاله ومقامه . فمنهم من يكفيه التوبيخ والكلام المناسب لفعلته ، ومنهم من لا يردعه إلا العقوبة البليغة .

وكذلك فى الصدقة والهدية ، ليس عطية الطوّاف الذى يدور على الناس فتكفيه التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان كعطية الفقير المتعفف الذى أصابته العَيْلة بعد الغنى . وفى الأثر « ارحموا عزيز قوم ذل » .

وكذلك يميز من له آثار وسوابق وغناء وتفع للمسلمين على من ليس كذلك .

فهذه الأمور وما أشبهها داخلة فى هذا الكلام الجامع التى تواطأ عليه الشرع والعقل . وما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن .

الحديث السادس عشر

عن أبي حرمة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ضارّ ضار الله به . ومن شاقّ شاق الله عليه » رواه الترمذي وابن ماجة .

هذا الحديث دل على أصلين من أصول الشريعة :

أحدهما : أن الجزاء من جنس العمل فى الخير والشر . وهذا من

حكمة الله التي يحمد عليها . فـكما أن من عمل ما يحبه الله أحبه الله . ومن عمل ما يبغضه أبغضه الله ، ومن يسر على مسلم يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة . ومن فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . والله فى حاجة العبد ما كان العبد فى حاجة أخيه ، كذلك من ضار مسلماً ضره الله ، ومن مَكَرَ به مكر الله به ، ومن شق عليه شق الله عليه ، إلى غير ذلك من الأمثلة الداخلة فى هذا الأصل .

الأصل الثانى : منع الضرر والمضارة ، وأنه «لا ضرر ولا ضرار» . وهذا يشمل أنواع الضرر كله .

والضرر يرجع إلى أحد أمرين : إما تفويت مصلحة ، أو حصول مضرة بوجه من الوجوه . فالضرر غير المستحق لا يحل إيصاله وعمله مع الناس ، بل يجب على الإنسان أن يمنع ضرره وأذاه عنهم من جميع الوجوه .

فيدخل فى ذلك : التدليس والغش فى المعاملات وكتم العيوب فيها ، والمكر والخداع وَالنجش ، وَتَلَقِّى الركبان ، وبيع المسلم على بيع أخيه ، والشراء على شرائه ، ومثله الإجارات ، وجميع المعاملات ، والخِطْبة على خِطْبة أخيه ، وخِطْبة الوظائف التى فيها أهل لها قائم بها . فكل هذا من المضارة المنهى عنها .

وكل معاملة من هذا النوع فإن الله لا يبارك فيها ، لأنه من ضارّ مسلماً ضارّه الله ، ومن ضاره الله ترحّل عنه الخير ، وتوجه إليه الشر ، وذلك بما كسبت يداه .

ويدخل فى ذلك : مضارة الشريك لشريكه ، والجار لجاره ، بقول أو فعل ، حتى إنه لا يحل له أن يحدث بملكه ما يضر بجاره ، فضلا عن مباشرة الإضرار به .

ويدخل فى ذلك: مضارة الغريم لغريمه ، وسعيه فى المعاملات التى تضر بغريمه ، حتى إنه لا يحل له أن يتصدق ويترك ما وجب عليه من الدين إلا بإذن غريمه ، أو يرهن موجوداته أحد غرمائه دون الباقين ، أو يقف ، أو يعتق ما يضر بغريمه ، أو ينفق أكثر من اللازم بغير إذنه .

وكذلك الضرار فى الوصايا . كما قال تعالى: (٤ : ١٢ من بعد وصية يوصى بها أو دَيْن غير مُضَارّ) بأن يخص أحد ورثته بأكثر مما له ، أو ينقص الوارث ، أو يوصى لغير وارثه بقصد الإضرار بالورثة .

وكذلك لا يحل إضرار الزوج بزوجته من وجوه كثيرة : إما أن يعضلها ظلما لتفتدى منه ، أو يراجعها لقصد الإضرار ، أو يميل إلى إحدى زوجتيه ميلا يضرّ بالأخرى ، ويجعلها كالمعلقة .

ومن ذلك : الحيف فى الأحكام والشهادات والقسمة وغيرها على

أحد الشخصين لنفع الآخر. فكل هذا داخل فى المضارة . وفاعله مستحق للعقوبة ، وأن يضار الله به .

وأشد من ذلك : الوقيعة فى الناس عند الولاة والأمراء ، ليغريهم بعقوبته أو أخذ ماله ، أومنعه من حق هوله ، فإن من عمل هذا العمل فإنه باغ ، فليتوقع العقوبة العاجلة والآجلة .

ومن هذا : نهى النبي صلى الله عليه وسلم « أن يورد مُمْرِض على مُصِحّ » لما فى ذلك من الضرر .

وكذلك نهى الجذْمَى ونحوهم عن مخالطة الناس ، وهذا وغيره داخل فى قوله تعالى : (٣٣:٥٨ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبيناً) ونهى صلى الله عليه وسلم عن ترويع المسلم ، ولو على وجه المزح .

ومن هذا السخرية بالخلق ، والاستهزاء بهم ، والوقيعة فى أعراضهم ، والتحريش بينهم . فكله داخل فى المضارة والمشاقة الموجب للعقوبة .

وكما يدل الحديث بمنطوقه : أن من ضارّ وشاق ضرّه الله وشق عليه ، فإن مفهومه يدل على : أن من أزال الضرر والمشقة عن المسلم فإن الله يجلب له الخير ، ويدفع عنه الضرر والمشاق ، جزاء وفاقا ، سواء كان متعلقاً بنفسه أو بغيره .

الحديث السابع عشر

عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتق الله حيثما كنت . وأتبع السيئة الحسنة تمحها. وخالق الناس بخلق حسن» رواه الإمام أحمد والترمذى .

هذا حديث عظيم جمع فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بين حق الله وحقوق العباد . فحق الله على عباده : أن يتقوه حق تُقاته . فيتقوا سخطه وعذابه باجتناب المنهيات وأداء الواجبات .

وهذه الوصية هى وصية الله للأولين والآخرين ، ووصية كل رسول لقومه أن يقول : « اعبدوا الله واتقوه» .

وقد ذكر الله خصال التقوى فى قوله تعالى: (٢ : ١٧٨ ليس البرّ أن تُولّوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) وفى قوله : (٣: ١٣٣ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) . ثم ذكر خصال التقوى فقال: (٣: ١٣٤ الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس . والله يحب المحسنين) .

فوصف المتقين بالإيمان بأصوله وعقائده وأعماله الظاهرة والباطنة وبأداء العبادات البدنية والعبادات المالية ، والصبر فى البأساء والضراء وحين البأس ، وبالعفو عن الناس ، واحتمال أذاهم ، والإحسان إليهم ، ومبادرتهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم بالاستغفار والتوبة ، فأمر صلى الله عليه وسلم ووصى بملازمة التقوى حيثما كان العبد فى كل وقت وكل مكان ، وكل حالة من أحواله ، لأنه مضطر إلى التقوى غاية الاضطرار ، لا يستغنى عنها فى كل حالة من أحواله .

ثم لما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير فى حقوق التقوى وواجباتها أمر صلى الله عليه وسلم بما يدفع ذلك ويمحوه . وهو أن يتبع الحسنة السيئة « والحسنة » اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله تعالى : وأعظم الحسنات الدافعة للسيئات التوبة النصوح والاستغفار والإنابة إلى الله بذكره وحبه ، وخوفه ورجائه ، والطمع فيه وفى فضله كل وقت . ومن ذلك الكفارات المالية والبدنية التى حددها الشارع .

ومن الحسنات التى تدفع السيئات : العفو عن الناس ، والإحسان إلى الخلق من الآدميين وغيرهم ، وتفريج الكربات ، والتيسير على المعسرين ، وإزالة الضرر والمشقة عن جميع العالمين . قال تعالى : (١١ : ١١٤ إن الحسنات يذهبن السيئات) وقال صلى الله عليه وسلم : « الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات

لما يذهبن ما اجتنبت الكبائر » وكم فى النصوص من ترتيب المغفرة على كثير من الطاعات .

ومما يكفر الله به الخطايا : المصائب ؛ فإنه لا يصيب المؤمن من همّ ولا غم ولا أذى ، حتى الشوكة يشاكها ، إلا كفر الله عنه بها خطاياه . وهى إما فوات محبوب ، أو حصول مكروه . بدنى ، أو قلبى ، أو مالى ، داخلى أو خارجى ، لكن المصائب بغير فعل العبد . فلهذا أمره بما هو من فعله ، وهو أن يتبع الحسنة السيئة .

ثم لما ذكر حق الله ـ وهو الوصية بالتقوى الجامعة لعقائد الدين وأعماله الباطنة والظاهرة ـ قال « وخالق الناس بخلق حسن »

وأول الخلق الحسن : أن تكف عنهم أذاك من كل وجه ، وتعفو عن مساوئهم وأذيتهم لك ، ثم تعاملهم بالإحسان القولى والإحسان الفعلى وأخص ما يكون بالخلق الحسن : سعة الحلم على الناس ، والصبر عليهم ، وعدم الضجر منهم ، وبشاشة الوجه ، ولطف الكلام والقول الجميل المؤنس للجليس ، المدخل عليه السرور ، المزيل لوحشته ومشقة حشمته . وقد يحسن المزح أحيانا إذا كان فيه مصلحة ، لكن لا ينبغى الإكثار منه وإنما المزح فى الكلام كالملح فى الطعام ، إن عدم أو زاد على الحد فهو مذموم .

ومن الخلق الحسن: أن تعامل كل أحد بما يليق به ، ويناسب حاله من صغير و كبير ، وعاقل وأحمق ، وعالم وجاهل .

فمن اتقى الله ، وحقق تقواه ، وخالق الناس على اختلاف طبقاتهم بالخلق الحسن : فقد حاز الخير كله ؛ لأنه قام بحق الله وحقوق العباد . ولأنه كان من المحسنين فى عبادة الله ، المحسنين إلى عباد الله .

الحديث الثامن عشر

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الظلم ظلمات يوم القيامة » متفق عليه .

هذا الحديث فيه التحذير من الظلم ، والحث على ضده ، وهو العدل . والشريعة كلها عدل ، آمرة بالعدل ، ناهية عن الظلم . قال تعالى: (٧:٢٩ قل أمر ربى بالقسط) ، (١٦ : ٩٠ إن الله يأمر بالعدل) ، (٦ : ٨٢ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) فإن الإيمان ـ أصوله وفروعه ، باطنه وظاهره ـ كله عدل ، وضده ظلم . فأعدل العدل وأصله : الاعتراف وإخلاص التوحيد لله ، والإيمان بصفاته وأسمائه الحسنى ، وإخلاص الدين والعبادة له . وأعظم الظلم ، وأشده الشرك بالله ، كما قال تعالى : (٣١ : ١٣ إن الشرك لظلم عظيم) وذلك أن العدل وضع الشيء فى موضعه ، والقيام بالحقوق الواجبة . والظلم عكسه فأعظم الحقوق. وأوجبها : حق الله على عباده: أن يعرفوه ويعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً ، ثم القيام بأصول الاعان ، وشرائع الإسلام من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان ، وحج البيت الحرام ، والجهاد

فى سبيل الله قولا وفعلا ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر .

ومن الظلم : الإخلال بشىء من ذلك ، كما أن من العدل : القيام بحقوق النبى صلى الله عليه وسلم من الإيمان به ومحبته ، وتقديمها على محبة الخلق كلهم ، وطاعته وتوقيره وتبجيله ، وتقديم أمره وقوله على أمر غيره وقوله .

ومن الظلم العظيم : أن يخل العبد بشىء من حقوق النبى صلى الله عليه وسلم الذى هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأرحم بهم وأرأف بهم من كل أحد من الخلق ، وهو الذى لم يصل إلى أحد خير إلا على يديه .

ومن العدل : بر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وأداء حقوق الأصحاب والمعاملين . ومن الظلم : الإخلال بذلك .

ومن العدل : قيام كل من الزوجين بحق الآخر . ومن أخل بذلك منهما فهو ظالم .

وظلم الناس أنواع كثيرة ، يجمعها قوله صلى الله عليه وسلم فى خطبته فى حجة الوَداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » .

فالظلم كله بأنواعه ظلمات يوم القيامة ، يعاقب أهلها على قدر ظلمهم ، ويجازى للمظلومون من حسنات الظالمين . فإن لم يكن لهم حسنات أو فنيت ، أخذ من سيئاتهم فطرحت على الظالمين .

والعدل كله نور يوم القيامة (٥٧ : ١٢ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعي نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار).

والله تعالى حرم الظلم على نفسه، وجعله بين عباده محرما. فالله تعالى على صراط مستقيم فى أقواله وأفعاله وجزائه. وهو العدل. وقد نصب لعباده الصراط المستقيم الذى يرجع إلى العدل، ومن عدل عنه عدل إلى الظلم والجور الموصل إلى الجحيم.

والظلم ثلاثة أنواع: نوع لا يغفره الله، وهو الشرك بالله (٤ : ٤٨ إن الله لا يغفر أن يشرك به).

ونوع لا يترك الله منه شيئاً، وهو ظلم العباد بعضهم لبعض. فمن كمال عدله: أن يقص الخلق بعضهم من بعض بقدر مظالمهم.

ونوع تحت مشيئة الله: إن شاء عاقب عليه، وإن شاء عفا عن أهله. وهو الذنوب التى بين العباد وبين ربهم فيما دون الشرك.

الحديث التاسع عشر

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انظروا إلى من هو أسفل منكم. ولا تنظروا إلى من هو فوقكم؛ فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم» متفق عليه.

يالمحاسن وصية نافعة، وكلمة شافية وافية. فهذا يدل على الحث على

شكر الله بالاعتراف بنعمه ، والتحدث بها ، والاستعانة بها على طاعة المنعم ، وفعل جميع الأسباب المعينة على الشكر . فإن الشكر لله هو رأس العبادة ، وأصل الخير ، وأوْجَبُه على العباد ؛ فإنه ما بالعباد من نعمة ظاهرة ولا باطنة ، خاصة أو عامة إلا من الله . وهو الذي يأتي بالخير والحسنات ، ويدفع السوء والسيئات . فيستحق أن يبذل له العباد من الشكر ما تصل إليه قواهم ، وعلى العبد أن يسعى بكل وسيلة توصله وتعينه على الشكر .

وقد أرشد صلى الله عليه وسلم إلى هذا الدواء العجيب ، والسبب القوى لشكر نعم الله . وهو أن يلحظ العبد في كل وقت من هو دونه في العقل والنسب والمال وأصناف النعم . فمتى استدام هذا النظر اضطره إلى كثرة شكر ربه والثناء عليه . فإنه لا يزال يري خلقاً كثيراً دونه بدرجات في هذه الأوصاف ، ويتمنى كثير منهم أن يصل إلى قريب مما أوتيه من عافية ومال ورزق ، وخَلق وخُلُق ، فيحمد الله على ذلك حمداً كثيراً ، ويقول : الحمد لله الذى أنعم عليّ وفضلنى على كثير ممن خلق تفضيلا .

ينظر إلى خلق كثير ممن سلبوا عقولهم ، فيحمد ربه على كمال العقل ، ويشاهد عالما كثيراً ليس لهم قوت مدخر ، ولا مساكن يأوون إليها ، وهو مطمئن في مسكنه ، موسع عليه رزقه .

ويري خلقاً كثيراً قد ابتُلوا بأنواع الأمراض ، وأصناف الأسقام

وهو مُعافى من ذلك، مُسَرْبل بالعافية. ويشاهد خلقاً كثيراً قد ابتُلوا ببلاء أعظم من ذلك، بانحراف الدين، والوقوع فى قاذورات المعاصى. والله قد حفظه منها أو من كثير منها.

ويتأمل أناساً كثيرين قد استولى عليهم الهم، وملكهم الحزن والوساوس، وضيق الصدر، ثم ينظر إلى عافيته من هذا الداء، ومنة الله عليه براحة القلب، حتى ربما كان فقيراً يفوق بهذه النعمة - نعمة القناعة وراحة القلب - كثيرا من الأغنياء.

ثم من ابتلى بشىء من هذه الأمور يجد عالما كثيراً أعظم منه وأشد مصيبة، فيحمد الله على وجود العافية وعلى تخفيف البلاء، فإنه ما من مكروه إلا ويوجد مكروه أعظم منه.

فمن وفق للاهتداء بهذا الهدى الذى أرشد إليه النبى صلى الله عليه وسلم لم يزل شكره فى قوة ونمو، ولم تزل نعم الله عليه تترى وتتوالى. ومن عكس القضية فارتفع نظره وصار ينظر إلى من هو فوقه فى العافية والمال والرزق وتوابع ذلك، فإنه لا بد أن يزدرى نعمة الله، ويفقد شكره. ومتى فقد الشكر ترحلت عنه النعم، وتسابقت إليه النقم، وامتحن بالغم الملازم، والحزن الدائم، والتسخط لما هو فيه من الخير، وعدم الرضى بالله ربا ومدبراً. وذلك ضرر فى الدين والدنيا وخسران مبين.

واعلم أن من تفكر فى كثرة نعم الله، وتفطن لآلاء الله الظاهرة

والباطنة ، وأنه لا وسيلة إليها إلا محض فضل الله وإحسانه ، وأن جنسا من نعم الله لا يقدر العبد على إحصائه وتمداده ، فضلا عن جميع الأجناس ، فضلا عن شكرها . فإنه يضطر إلى الاعتراف التام بالنعم ، وكثرة الثناء على الله ، واستحى من ربه أن يستعين بشيء من نعمه على مالا يحبه ويرضاه ، وأوجب له الحياء من ربه الذى هو من أفضل شعب الإيمان فاستحى من ربه أن يراه حيث نهاه ، أو يفقده حيث أمره .

ولما كان على الشكر مدار الخير وعنوانه قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل: «إني أحبك ، فلا تدعن أن تقول دبر كل صلاة مكتوبة : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » وكان يقول : « اللهم اجعلنى لك شكاراً ، لك ذكاراً. اللهم اجعلنى أعظم شكرك ، وأكثر ذكرك ، وأتبع نصحك ، وأحفظ وصيتك » .

وقد اعترف أعظم الشاكرين بالعجز عن شكر نعم الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » والله أعلم .

الحديث العشرون

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يقبل الله صلاة أحدكم ـ إذا أحدث ـ حتى يتوضأ » متفق عليه

يدل الحديث بمنطوقه : أن من لم يتوضأ إذا أحدث فصلاته غير مقبولة : أي غير صحيحة ، ولا مجزئة ، وبمفهومه : أن من توضأ قبلت صلاته : أي مع بقية ما يجب ويشترط للصلاة : لأن الشارع يعلق كثيراً من الأحكام على أمور معينة لا تكفي وحدها لترتب الحكم ، حتى ينضم إليها بقية الشروط ، وحتى تنتفى الموانع . وهذا الأصل الشرعى متفق عليه بين أهل العلم ؛ لأن العبادة التى تحتوى على أمور كثيرة ـ كالصلاة مثلا ـ لا يشترط أن تجمع أحكامها فى كلام الشارع فى موضع واحد ، بل يجمع جميع ما ورد فيها من الأحكام ، فيؤخذ مجموع أحكامها من نصوص متعددة . وهذا من أكبر الأسباب لوضع الفقهاء علوم الفقه والأحكام ، وترتيبها وتبويبها . وضم الأجناس والأنواع بعضها لبعض للتقريب على غيرهم . فلهم فى ذلك اليد البيضاء فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

وهذا الأصل ينبغى أن تعتبره فى كل موضع . وهو أن الأحكام لا تتم إلا باجتماع شروطها ولوازمها ، وانتفاء موانعها .

والحدث يشمل جميع نواقض الوضوء . فيدخل فيه الخارج من السبيلين ، والنوم الناقض للوضوء ، والخارج الفاحش من بقية البدن إذا كان نجسا ، وأكل لحم الإبل ، ولمس المرأة لشهوة ، ولمس الفرج باليد . وفى بعضها خلاف .

فكل من وجد منه شيء من هذه النواقض لم تصح صلاته ، حتى يتوضأ الوضوء الشرعي . فيغسل الأعضاء التي نص الله عليها في سورة المائدة ، مع الترتيب والموالاة ، أو يتطهر بالتراب بدل الماء عند تعذر استعمال الماء : إما لعدمه ، وإما لخوفه باستعماله الضرر .

وفي هذا دليل على أنه لو صلى ناسياً أو جاهلا حدثه فعليه الإعادة لعموم الحديث ، وهو متفق عليه . فهو وإن كان مثاباً على فعله صورة الصلاة وما فيها من العبادات ، لكن عليه الإعادة لإبراء ذمته . وهذا بخلاف من تطهر ونسي ما على بدنه أو ثوبه من النجاسة فإنه لا إعادة عليه على الصحيح ؛ لأن الطهارة من باب فعل الأمور التي لا تبرأ الذمة إلا بفعله . وأما اجتناب النجاسة فإنه من باب اجتناب المحظور الذي إذا فعل والإنسان معذور ، فلا إعادة عليه .

الحديث الحادي والعشرون

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظافر ، وغسل البراجم ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء ، يعني الاستنجاء » قال الراوي : ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة . رواه مسلم .

« الفطرة » هي الخلقة التي خلق الله عباده عليها ، وجعلهم مفطورين عليها : على محبة الخير وإيثاره ، وكراهة الشر ودفعه ، وفطرهم

حنفاء مستعدين ،لقبول الخير والإخلاص لله ، والتقرب إليه ، وجعل تعالى شرائع الفطرة نوعين .

أحدهما : يطهر القلب والروح ، وهو الإيمان بالله وتوابعه : من خوفه ورجائه ، ومحبته والإنابة إليه . قال تعالى : (٣٠ : ٣٠، ٣١ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه ، وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين) فهذه تزكي النفس ، وتطهر القلب وتنميه ، وتذهب عنه الآفات الرزيلة ، وتحليه بالأخلاق الجميلة ، وهي كلها ترجع إلى أصول الإيمان وأعمال القلوب .

والنوع الثاني : ما يعود إلى تطهير الظاهر ونظافته ، ودفع الأوساخ والأقذار عنه ، وهي هذه العشرة ، وهي من محاسن الدين الإسلامي ؛ إذ هي كلها تنظيف للأعضاء ، وتكميل لها ، لتتم صحتها وتكون مستعدة لكل ما يراد منها .

فأما المضمضة والاستنشاق : فإنهما مشروعان في طهارة الحدث الأصغر والأكبر بالاتفاق . وهما فرضان فيهما من تطهير الفم والأنف وتنظيفهما ، لأن الفم والأنف يتوارد عليهما كثير من الأوساخ والأبخرة ونحوها . وهو مضطر إلى ذلك وإزالته . وكذلك السواك يطهر الفم. فهو « مطهرة للفم مرضاة للرب » ولهذا يشرع كل وقت ويتأكد عند

الوضوء والصلاة والانتباه من النوم ، وتنير الفم ، وصفرة الأسنان ونحوها .

وأما قص الشارب أو حفه حتى تبدو الشفة ، فلما فى ذلك من من النظافة ، والتحرز مما يخرج من الأنف ، فإن شعر الشارب إذا تدلى على الشفة باشر به ما يتناوله من مأكول ومشروب ، مع تشويه الخلقة بوفرته ، وإن استحسنه من لا يعبأ به . وهذا بخلاف اللحية ، فإن الله جعلها وقاراً للرجل وجمالا له . ولهذا تبقى جماله فى حال كبره بوجود شعر اللحية . واعتبر ذلك عن يعصى الرسول صلى الله عليه وسلم فيحلقها ، كيف يبقى وجهه مشوهاً قد ذهبت محاسنه ، وخصوصاً وقت الكبر . فيكون كالمرأة العجوز إذا وصلت إلى هذا السن ذهبت محاسنها ، ولو كانت فى صباها من أجمل النساء . وهذا محسوس ، ولكن العوائد والتقليد الأعمى يوجب استحسان القبيح ، واستقباح الحسن .

وأما قص الأظفار ونتف الإبط ، وغسل البراجم ، وهى مطاوى البدن التى تجتمع فيها الأوساخ ـ فلما من التنظيف وإزالة المؤذيات مالا يمكن ، جحده ، وكذلك حلق العانة .

وأما الاستنجاء ـ وهو إزالة الخارج من السبيلين بماء أو حجر ـ فهو لازم وشرط من شروط الطهارة .

فعلمت أن هذه الأشياء كلها ، تكمل ظاهر الإنسان وتطهره

وتنظفه، وتدفع عنه الأشياء الضارة والمستقبحة، والنظافة من الإيمان

والمقصود: أن الفطرة هي شاملة لجميع الشريعة، باطنها وظاهرها؛ لأنها تنقى الباطن من الأخلاق الرذيلة، وتحليه بالأخلاق الجميلة التى ترجع إلى عقائد الإيمان والتوحيد، والإخلاص لله والإنابة إليه، وتنقى الظاهر من الأنجاس والأوساخ وأسبابها. وتطهره الطهارة الحسية والطهارة المعنوية. ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «الطهور شَطْر الإيمان» وقال تعالى: (٢٢٢:٢ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)

فالشريعة كلها طهارة وزكاء وتنمية وتكميل، وحث على معالى الأمور، ونهى عن سفسافها، والله أعلم.

الحديث الثانى والعشرون

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الماء طهور لا ينجسه شيء». رواه أحمد والترمذى وأبو داود والنسائى.

هذا الحديث الصحيح يدل على أصل جامع، وهو أن الماء ـ أى جميع المياه النابعة من الأرض، والنازلة من السماء الباقية على خلقتها، أو المتغيرة بمقرها أو ممرها، أو بما يلقى فيها من الطاهرات ولو تغيراً كثيراً ـ طاهرة تستعمل فى الطهارة وغيرها. ولا يستثنى من هذا الكلام الجامع إلا الماء المتغير لونه أو طعمه أو ريحه بالنجاسة، كما فى بعض ألفاظ هذا الحديث.

وقد اتفق العلماء على نجاسة المـاء المتغير بالنجاسة . واستدل عليه الإمام أحمد رضى الله عنه وغيره بقوله تعالى (٥ : ٣ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) إلى آخر الآية . يعنى : ومتى ظهرت أوصاف هذه الأشياء المحرمة فى المـاء صار نجساً خبيثاً .

وهذا الحديث وغيره يدل على أن المـاء المتغير بالطاهرات طهور. وعلى أن ماخلت به المرأة لا يمنع منه مطلقاً . وعلى طهورية ماانغمست فيه يد القائم من نوم الليل ، وإنما ينهى القائم من النوم عن غمسها حتى يغسلها ثلاثاً . وأما المنع من الماء فلايدل الحديث عليه .

والمقصود : أن هذا الحديث يدل على أن المـاء قسمان : نجس ، وهو ما تغير أحد أوصافه بالنجـاسة ، قليلا كان أو كثيراً . وطهور ، وهو ماليس كذلك . وأن إثبات نوع ثالث ـ لاطهور ولانجس ، بل طاهر غير مطهر ، ليس عليه دليل شرعى ، فيبقى على أصل الطهورية .

ويؤيد هذا العموم قوله تعـالى : (٥ : ٦ فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيـداً طيباً) وهذا عام فى كل ماء ، لأنه نـكرة فى سيـاق النفي ، فيشمل كل ماء خرج منه الماء النجس للإجماع عليه .

ودل هذا الحديث أيضاً : أن الأصل فى المياه الطهارة . وكذلك فى غيرها . فمتى حصل الشـك فى شىء منهـا : هل وجد فيه سبب التنجيس أم لا ؟ فالأصل الطهارة .

الحديث الثالث والعشرون

عن أبي قتادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهرة : « إنها ليست بنجس ، إنها من الطوّافين عليكم والطوّافات » رواه مالك وأحمد وأهل السنن الأربع .

هذا الحديث محتوٍ على أصلين :

أحدهما : أن المشقة تجلب التيسير . وذلك أصل كبير من أصول الشريعة ، من جملته : أن هذه الأشياء التي يشق التحرز منها طاهرة ، لايجب غسل ما باشرت بفيها أو يدها أو رجلها ، لأنه علل ذلك بقوله : « إنها من الطوافين عليكم والطوافات » كما أباح الاستجمار في محل الخارج من السبيلين ، ومسح ما أصابته النجاسة من النعلين والخفين ، وأسفل الثوب ، وعفا عن يسير طين الشوارع النجس ، وأبيح الدم الباقي في اللحم والعروق بعد الدم المسفوح ، وأبيح ماأصابه فم الكلب من الصيد ، وما أشبه ذلك مما يجمعه علة واحدة ، وهي المشقة .

الثاني : أن الهرة وما دونها في الخلقة كالفأرة ونحوها طاهرة في الحياة لا ينجس ما باشرته من طعام وشراب وثياب وغيرها ، ولذلك قال أصحابنا : الحيوانات أقسام خمسة :

إحداها : نجس حياً وميتاً في ذاته وأجزائه وفضلاته . وذلك كالكلاب والسباع كلها ، والخنزير ونحوها .

الثانى : ما كان طاهراً فى الحياه نجساً بعد الممات . وذلك كالهرة وما دونها فى الخلقة . ولا تحله الذكاة ولا غيرها .

الثالث : ما كان طاهراً فى الحياة وبعد الممات ، ولكنه لا يحل أكله ، وذلك كالحشرات التى لا دم لها سائل .

الرابع : ما كان طاهراً فى الحياة وبعد الذكاة . وذلك كالحيوانات المباح أكلها ، كبهيمة الأنعام ونحوها .

الخامس : ما كان طاهراً فى الحياة وبعد الممات ، ذُكِّىَ أو لم يُذَكَّ وهو حلال ، وذلك كحيوانات البحر كلها والجراد .

واستدل كثير من أهل العلم بقوله صلى الله عليه وسلم : «إنها من الطوافين عليكم والطوافات» بطهارة الصبيان ، وطهارة أفواههم ، ولو بعد ما أصابتها النجاسة ، وكذلك طهارة ريق الحمار والبغل وعرقه وشعره . وأين مشقة الهر من مشقة الحمار والبغل ؟

ويدل عليه : أنه صلى الله عليه وسلم كان يركبها هو وأصحابه ، ولم يكونوا يتوقّون منها ما ذكرنا . وهذا هو الصواب .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم فى لحوم الحمر يوم خيبر: «إنها رجس» أى : لحمها رجس نجس حرام أكله . وأما ريقها وعرقها وشعرها : فلم ينه عنه ، ولم يتوقّه صلى الله عليه وسلم

وأما الكلاب : فإنه صلى الله عليه وسلم أمر بغسل ما ولغت فيه سبع مرات إحداهن بالتراب .

الحديث الرابع والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » رواه مسلم .

هذا الحديث يدل على عظيم فضل الله وكرمه بتفضيله هذه العبادات الثلاث العظيمة ، وأن لها عند الله المنزلة العالية ، وثمراتها لا تعد ولا تحصى .

فمن ثمراتها : أن الله جعلها مكملة لدين العبد وإسلامه ، وأنها منمية للإيمان ، مسقية لشجرته . فإن الله غرس شجرة الإيمان في قلوب المؤمنين بحسب إيمانهم ، وقدَّرَ من ألطافه وفضله من الواجبات والسنن ما يسقي هذه الشجرة وينميها ، ويدفع عنها الآفات حتى تكمل وتؤتي أُكُلها كل حين بإذن ربها ، وجعلها تنفي عنها الآفات .

فالذنوب ضررها عظيم ، وتنقيصها للإيمان معلوم .

فهذه الفرائض الثلاث إذا تجنب العبد كبائر الذنوب غفر الله بها الصغائر والخطيئات . وهي من أعظم ما يدخل في قوله تعالى (١١ : ١١٤ : (إن الحسنات يذهبن السيئات) كما أن الله جعل من لطفه تجنب الكبائر سبباً لتكفير الصغائر . قال تعالى : (٤ : ٣١ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مُدْخلا كريما) .

أما الكبائر فلا بد لها من توبة .

وعلم من هذا الحديث : أن كل نص جاء فيه تكفير بعض الأعمال الصالحة للسيئات ، فإنما المراد به الصغائر ؛ لأن هذه العبادات الكبار إذا كانت لا تكفر بها الكبائر فكيف بما دونها ؟

والحديث صريح فى أن الذنوب قسمان : كبائر ، وصغائر .

وقد كثر كلام الناس فى الفرق بين الصغائر والكبائر . وأحسن ما قيل : أن الكبيرة مارتب عليه حد فى الدنيا ، أو توعد عليه بالآخرة أو لعن صاحبه ، أو رتب عليه غضب ونحوه ، والصغائر ما عدا ذلك .

أو يقال : الكبائر : ما كان تحريمه تحريم المقاصد . والصغائر : ما حرم تحريم الوسائل ، فالوسائل : كالنظرة المحرمة مع الخلوة بالأجنبية . والكبيرة : نفس الزنا ، وكربا الفضل مع ربا النسيئة، ونحو ذلك . والله أعلم .

الحديث الخامس والعشرون

عن مالك بن الحويرث رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلوا كما رأيتمونى أصلى ، وإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم ، وليؤمكم أكبركم » متفق عليه .

هذا الحديث احتوى على ثلاث جمل ، أولها أعظمها :

الجملة الأولى : قوله « إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم » فيه مشروعية الأذان ووجوبه للأمر به ، وكونه بعد دخول الوقت .

ويستثنى من ذلك صلاة الفجر . فإنه صلى الله عليه وسلم قال : «إن بلالا يؤذن بليل ، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم. فإنه لا ينادى حتى يقال له : أصبحت ، أصبحت » وأن الأذان فرض كفاية ، لافرض عين ؛ لأن الأمر من الشارع إن خوطب به كل شخص مكلف وطلب حصوله منه ، فهو فرض عين . وإن طلب حصوله فقط ، بقطع النظر عن الأعيان ، فهو فرض كفاية . وهنا قال : « فليؤذن لكم أحدكم » وألفاظ الأذان معروفة .

وينبغى أن يكون المؤذن : صَيِّتاً أميناً ، عالما بالوقت ، متحريا له ، لأنه أعظم لحصول المقصود . ويكفى من يحصل به الإعلام غالباً .

والحديث يدل على وجوب الأذان فى الحضر والسفر . والإقامة من تمام الأذان ، لأن الأذان : الإعلام بدخول الوقت للصلاة ، والإقامة : الإعلام بالقيام إليها .

وقد وردت النصوص الكثيرة بفضله ، وكثرة ثوابه ، واستحباب إجابة المؤذن ، وأن يقول المجيب مثل ما يقول المؤذن إلا إذا قال : « حَىّ على الصلاة ، حى على الفلاح » فيقول كلمة الاستعانة بالله على ما دعا إليه من الصلاة والفلاح الذى هو الخير كله : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ثم يصلى على النبى صلى الله عليه وسلم ويقول: «اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة . وابعثه مقاماً

محموداً الذى وعدته » ثم يدعو لنفسه ؛ لأنه من مواطن الإجابة التى ينبغى للداعى قصدها .

الجملة الثانية قوله : «وليؤمكم أكبركم» فيه : وجوب صلاة الجماعة وأن أقلها إمام ومأموم ، وأن الأولى بالإمامة أقومهم بمقصود الإمامة، كما ثبت فى الصحيح : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله . فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسُّنة . فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة أو إسلاما » فإذا كانوا متقاربين ـ كما فى هذا الحديث ـ كان الأولى منهما أكبرهما ؛ فإن تقديم الأكبر مشروع فى كل أمر طلب فيه الترتيب ، إذا لم يكن للصغير مزيد فضل ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم « كَبِّرْ ، كَبِّرْ »

وإذا ترتبت الصلاة بإمام ومأموم فإنما جعل الإمام ليؤتم به . فإذا كبر : كَبَّر من وراءه . وإذا ركع ، وسجد ، ورفع : تبعه من بعده وينهى عن موافقته فى أفعال الصلاة وأما مسابقته الإمام ، والتقدم عليه فى ركوع أو سجود ، أو خفض أو رفع ، فإن ذلك حرام ، مبطل للصلاة . فيؤمر المأمومون بالاقتداء بإمامهم . وينهون عن الموافقة والمسابقة والتخلف الكثير . فإن كانوا اثنين فأكثر فالأفضل : أن يصفوا خلفه . ويجوز عن يمينه ، أو عن جانبيه . والرجل الواحد يصف عن يمين الإمام . والمرأة خلف الرجل ، أو الرجال . وتقف وحدها ، إلا إذا كان معها نساء فيكنّ كالرجال فى وجوب المصافّة . وإن وقف

الرجل الواحد خلف الإمام أو خلف الصف لغير عذر بطلت صلاته .

وعلى الإمام تحصيل مقصود الإمامة من الجهر بالتكبير في الانتقالات والتسميع ، ومن الجهر في القراءة الجهرية . وعليه مراعاة المأمومين في التقدم والتأخر ، والتخفيف مع الإتمام .

الجملة الثالثة : ـ وهي الأولى في هذا الحديث ـ قوله : « صلوا كما رأيتموني أصلي » وهذا تعليم منه صلى الله عليه وسلم بالقول والفعل ، كما فعل ذلك في الحج ، حيث كان يقوم بأداء المناسك ويقول للناس : خذوا عني مناسككم » وهذه الجملة تأتي على جميع ما كان يفعله ويقوله ويأمر به في الصلاة ، وذلك بأن يستكمل العبد جميع شروط الصلاة ، ثم يقوم إلى صلاته ويستقبل القبلة ، ناويا الصلاة المعينة بقلبه . ويقول « الله أكبر » ثم يستفتح ، ويتعوذ بما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنواع الاستفتاحات والتعوذات ، ويقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم » ثم يقرأ الفاتحة ، وسورة طويلة في صلاة الفجر ، وقصيرة في صلاة المغرب ، وبين ذلك في بقية الصلوات ، ثم يركع مكبراً رافعاً يديه حذو منكبيه في ركوعه وفي رفعه منه في كل ركعة ، وعند تكبيرة الإحرام . وإذا قام من التشهد الأول على الصحيح في الصلاة الرباعية والثلاثية ، ويقول : « سبحان ربي العظيم » مرة واجبة . وأقل الكمال : ثلاث مرات ، فأكثر . وكذلك تسبيح السجود قول : « سبحان ربي الأعلى » ثم يرفع رأسه قائلا ـ إماماً ومنفرداً ـ : « سمع الله لمن حمده .

ربنا ولك الحمد ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه » وكذلك المأموم ، إلا أنه لا يقول: « سمع الله لمن حمده » ثم يكبر ويسجد على سبعة أعضاء: القدمين ، والركبتين ، والكفين ، والجبهة . مع الأنف ، ويمكنها من الأرض ، ويجافيها ، ولا يبسط ذراعيه انبساط الكلب ، ثم يرفع مكبراً ، ويجلس مفترشاً جالساً على رجله اليسرى ، ناصباً رجله اليمنى ، موجهاً أصابعها إلى القبلة . والصلاة جلوسها كله افتراش ، إلا فى التشهد الأخير . فإنه ينبغى له أن يتورّك ، فيقعد على الأرض ، ويخرج رجله اليسرى عن يمينه ، ويقول بين السجدتين: «رب اغفر لى وارحمنى واهدنى وارزقنى واجبرنى » ثم يسجد الثانية كالأولى . وهكذا يفعل فى كل ركعة ، وعليه أنْ يطمئن فى كل رفع وخفض ، وركوع وسجود وقيام وقعود ، ثم يتشهد فيقول: «التحيات لله ، والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » هذا التشهد الأول ، ثم يقوم ، إن كانت رباعية أو ثلاثية ، ويصلى بقيتها بالفاتحة وحدها ، وإن كان فى التشهد الذى يليه السلام قال : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد . اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » ويدعو بما أحب ،

ثم يسلم، ويذكر الله بما ورد، فجميع الوارد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة من فعله وقوله وتعليمه وإرشاده داخل في قوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي» وهو مأمور به، أمر إيجاب أو استحباب بحسب الدلالة.

فما كان من أجزائها، لا يسقط سهواً ولا جهلا، ولا عمداً قيل له: ركن، كتكبيرة الإحرام، وقراءة الفاتحة، والتشهد الأخير، والسلام، وكالقيام، والركوع، والسجود، والاعتدال عنها.

وما كان يسقط سهواً ويجبره سجود السهو قيل له: واجب، كالتشهد الأول، والجلوس له، والتكبيرات غير تكبيرة الإحرام، وقول: «سمع الله لمن حمده» للإمام والمنفرد، وقول: «ربنا ولك الحمد» لكل مصل، وقول: «سبحان ربي العظيم» مرة في الركوع، و«سبحان ربي الأعلى» مرة في السجود، وقول: «رب اغفر لي» بين السجدتين.

وما سوى ذلك فإنه من مكملاتها ومستحباتها. وخصوصاً روح الصلاة ولبها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله من قراءة، وذكر ودعاء، وما يفعله من قيام وقعود، وركوع وسجود، والخضوع لله، والخشوع فيها لله

ومما يدخل في ذلك: تجنب مانهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم في الصلاة، كالضحك، والكلام، وكثرة الحركة المتتابعة لغير ضرورة

فإن الصلاة لا تتم إلا بوجود شروطها وأركانها وواجباتها ، وانتفاء مبطلاتها التى ترجع إلى أمرين : إما إخلال بلازم ، أو فعل ممنوع فيها ، كالكلام ونحوه .

الحديث السادس والعشرون

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرُّعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأَرض كلها مسجداً وطهورا . فأيُّما رجل من أُمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأُحلّت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى . وأُعطيت الشفاعة . وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » متفق عليه .

فُضِّل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بفضائل كثيرة فاق بها جميع الأنبياء . فكل خصلة حميدة ترجع إلى العلوم النافعة ، والمعارف الصحيحة ، والعمل الصالح . فلنبينا منها أعلاها وأفضلها وأكملها . ولهذا لما ذكر الله أعيان الأنبياء الكرام قال لنبيه : (٦ : ٩٠ أُولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتَدِه) وهداهم : هو ما كانوا عليه من الفضائل الظاهرة والباطنة .

وقد تمم صلى الله عليه وسلم ما أمر به ، وفاق جميع الخلق ، ولذلك خص الله نبينا بخصائص لم يشاركه فيها أحد من الأنبياء ، منها : هذه الخمس التى عادت على أمته بكل خير وبركة ونفع .

إحداها : أنه نصر بالرعب مسيرة شهر ، وهذا نصر ربانى ، وجند من السماء يعين الله به رسوله وأمته المتبعين لهديه ، فمتى كان عدوه عنه مسافة شهر فأقل فإنه مرعوب منه ، وإذا أراد الله نصر أحد ألقى فى قلوب أعدائه الرعب ، قال تعالى : (٣ : ١٥١ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) وألقى فى قلوب المؤمنين من القوة والثبات والسكينة والطمأنينة ما هو أعظم أسباب النصر ، فالله تعالى وعد نبينا وأمته بالنصر العظيم ، وأن يعينهم بأسباب أرشدهم إليها ، كالاجتماع والائتلاف ، والصبر والاستعداد للأعداء بكل مستطاع من القوة إلى غير ذلك من الإرشادات الحكيمة ، وساعدهم بهذا النصر ، وقد فعل تبارك وتعالى ، كما هو معروف من حال نبينا صلى الله عليه وسلم والمتبعين له من خلفائه الراشدين والملوك الصالحين ، تم لهم من النصر والعز العظيم فى أسرع وقت ما لم يتم لغيرهم

الثانية : قوله : « وجعلت لى الأرض كلها مسجداً وطهوراً » وحقق ذلك بقوله : « فأيما أدركت أحداً من أمتى الصلاة فعنده مسجده وطهوره » فجميع بقاع الأرض مسجد يصلى فيها من غير استثناء إلا مانص الشارع على المنع منه . وقد ثبت النهى عن الصلاة فى المقبرة والحمام ، وأعطان الإبل . وكذلك الموضع المغصوب والنجس لاشتراط الطهارة لبدن المصلى وثوبه وبقعته .

وكذلك من عدم الماء أو ضره استعماله فله العدول إلى التيمم بجميع

ما تصاعد على وجه الأرض ، سواء التراب الذي له غبار أو غيره ، كما هو صريح هذا الحديث مع قوله تعالى : (٥ : ٦ فتيمموا صعيداً طيباً ، فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه) فإن الصعيد : كل ما تصاعد على وجه الأرض من جميع أجزائها .

ويدل على أن التيمم على الوجه واليدين ينوب مناب طهارة الماء ، ويفعل به من الصلاة والطواف ومس المصحف وغير ذلك ما يفعل بطهارة الماء : والشارع أناب التراب مناب الماء عند تعذر استعماله . فيدل ذلك على أنه إذا تطهر بالتراب ولم ينتقض وضوءه لم يبطل تيممه بخروج الوقت ولا بدخوله ، وأنه إذا نوى التيمم للنفل استباح الفرض كطهارة الماء ، وأن حكمه حكم الماء في كل الأحكام في حالة التعذر .

الثالثة : قوله : « وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلى » وذلك لكرامته على ربه ، وكرامة أمته وفضلهم ، وكمال إخلاصهم ، فأحلها لهم ، ولم ينقص من أجر جهادهم شيئاً . وحصل بها لهذه الأمة من سعة الأرزاق ، وكثرة الخيرات ، والاستعانة على أمور الدين والدنيا شيء لا يمكن عده . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : « وجعل رزقى تحت ظل رمحى » أما من قبلنا من الامم ، فإن جهادهم قليل بالنسبة لهذه الأمة ، وهم دون هذه الأمة بقوة الإيمان والإخلاص . فمن رحمته بهم أنه منعهم من الغنائم ؛ لئلا يخل بإخلاصهم . والله أعلم .

الرابعة : قوله : « وأعطيت الشفاعة » وهى الشفاعة العظمى التى

يعتذر عنها كبار الرسل ، وينتدب لها خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم . فيشفعه الله فى الخلق . ويحصل له المقام المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون ، وأهل السموات والأرض . وتنال أمته من هذه الشفاعة الحظ الأوفر ، والنصيب الأكمل . ويشفع لهم شفاعة خاصة ، فيشفعه الله تعالى . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لكل نبى دعوة قد تعجَّلها . وقد خَبَأْتُ دعوتى شفاعة لأمتى ، فهى نائلة ـ إن شاء الله ـ من مات لا يشرك بالله شيئاً » ، وقال : « أسعد الناس بشفاعتى : من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » .

الخامسة : قوله : « وكان النبى » أى : جنس الأنبياء « يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » وذلك لكمال شريعته وعمومها وسعتها ، واشتمالها على الصلاح المطلق ، وأنها صالحة لكل زمان ومكان . ولا يتم الصلاح إلا بها . وقد أسست للبشر أصولا عظيمة ، متى اعتبروها صلحت لهم دنياهم كما صلح لهم دينهم .

الحديث السابع والعشرون

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم بثلاث : صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتى الضحى ، وأن أوتر قبل أن أنام » متفق عليه .

وصيته صلى الله عليه وسلم وخطابه لواحد من أمته خطاب للأمة كلها ، مالم يدل دليل على الخصوصية .

فهذه الوصايا الثلاث ، من آكد نوافل الصلاة والصيام .

أما صيام ثلاثة أيام من كل شهر : فإنه ورد أنه يعدل صيام السنة ؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها . وصيام الثلاث من كل شهر يعدل صيام الشهر كله . والشريعة مبناها على اليسر والسهولة . وجانب الفضل فيها غالب . وهذا العمل يسير على من يسره الله عليه ، لا يشق على الإنسان ولا يمنعه القيام بشيء من مهماته ، ومع ذلك ففيه هذا الفضل العظيم ؛ لأن العمل كلما كان أطوع للرب وأنفع للعبد ، كان أفضل مما ليس كذلك . وقد ثبت الحث على تخصيص ستة من شوال ، وصيام يوم عرفة ، والتاسع والعاشر من المحرم ، والإثنين والخميس .

وأما صلاة الضحى : فإنه قد تكاثرت الأحاديث الصحيحة فى فضلها ، واختلف العلماء فى استحباب مداومتها ، أو أن يغب بها الإنسان . والصحيح : أنه تستحب المداومة عليها لهذا الحديث وغيره إلا لمن له عادة من صلاة الليل ، فإذا تركها أحيانا فلا بأس . وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه يصبح على كل آدمى كل يوم ثلاثمائة وستون صدقة ، فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة . وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن المنكر صدقة . ويجزى من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى » قال العلماء : أقل صلاة الضحى ركعتان ، وأكثرها ثمان ، ووقتها من ارتفاع الشمس قِيدَ رمح إلى قبيل الزوال .

وأما الوتر : فإنه سنة مؤكدة ، حث عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وداوم عليه حضراً وسفراً .

وأقله : ركعة واحدة ، وإن شاء بثلاث ، أو خمس ، أو سبع ، أو تسع ، أو إحدى عشر ركعة وله أنْ يسردها بسلام واحد ، وأن يسلم من كل ركعتين .

ووقت الوتر من صلاة العشاء الآخرة إلى طلوع الفجر والأفضل آخر الليل لمن طمع أن يقوم آخره ، وإلا أوتر أوله كما فى هذا الحديث.

الحديث الثامن والعشرون

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الدين يُسْر ، ولن يَشادَّ الدينَ أحد إلا غلبه ، فسَدِّدوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغُدْوة والروحة ، وشيء من الدُّلْجة » متفق عليه . وفي لفظ « والقصدَ القصدَ تَبْلُغوا » .

ما أعظم هذا الحديث ، وأجمعه للخير والوصايا النافعة ، والأُصول الجامعة . فقد أسس صلى الله عليه وسلم فى أوله هذا الأصل الكبير . فقال : « إن الدين يسر » أي ميسر مسهل فى عقائده وأخلاقه وأعماله ، وفى أفعاله وتُروكه . فإن عقائده التى ترجع إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَر خيره وشره : هى العقائد الصحيحة التى تطمئن لها القلوب ، وتوصِّل مقتديها إلى أجلِّ غاية وأفضل مطلوب . وأخلاقه وأعماله أكمل الأخلاق ، وأصلح الأعمال ، بها صلاح الدين

والدنيا والآخرة . وبفواتها يفوت الصلاح كله . وهى كلها ميسرة مسهلة ، كل مكلف يرى نفسه قادراً عليها لا تشق عليه ، ولا تكلفه ، عقائده صحيحة بسيطة . تقبلها العقول السليمة ، والفطر المستقيمة . وفرائضه أسهل شيء .

أما الصلوات الخمس : فإنها تتكرر كل يوم وليلة خمس مرات فى أوقات مناسبة لها . وتمم اللطيف الخبير سهولتها بإيجاب الجماعة والاجتماع لها ؛ فإن الاجتماع فى العبادات من المنشطات والمسهلات لها ورتب عليها من خير الدين وصلاح الإيمان ، وثواب الله العاجل والآجل ما يوجب للمؤمن أن يستحليها ، ويحمد الله على فرضه لها على العباد ؛ إذ لا غنى لهم عنها .

وأما الزكاة : فإنها لا تجب على فقير ليس عنده نصاب زكوى . وإنما تجب على الأغنياء تتميما لدينهم وإسلامهم ، وتنمية لأموالهم ، وأخلاقهم ، ودفعاً للآفات عنهم وعن أموالهم ، وتطهيراً لهم من السيئات ، ومواساة لمحاويجهم ، وقياماً لمصالحهم الكلية . وهى مع ذلك جزء يسير جداً بالنسبة إلى ما أعطاهم الله من المال والرزق .

وأما الصيام : فإن المفروض شهر واحد من كل عام ، يجتمع فيه المسلمون كلهم ، فيتركون فيه شهواتهم الأصلية ـ من طعام وشراب ونكاح ـ فى النهار ، ويعوضهم الله عن ذلك من فضله وإحسانه تتميم دينهم وإيمانهم ، وزيادة كمالهم ، وأجره العظيم ، وبره العميم ، وغير ذلك

مما رتبه على الصيام من الخير الكثير ، ويكون سبباً لحصول التقوى التي ترجع إلى فعل الخيرات كلها ، وترك المنكرات .

وأما الحج : فإن الله لم يفرضه إلا على المستطيع ، وفي العمر مرة واحدة . وفيه من المنافع الكثيرة الدينية والدنيوية مالا يمكن تعداده . وقد فصلنا مصالح الحج ومنافعه في محل آخر . قال تعالى (٢٢ : ٢٨ ليشهدوا منافع لهم) أي : دينية ودنيوية .

ثم بعد ذلك بقية شرائع الإسلام التي هي في غاية السهولة الراجعة لأداء حق الله وحق عباده . فهي في نفسها ميسرة . قال تعالى (٢ : ١٨٥ يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر) ومع ذلك إذا عرض للعبد عارض مرض أو سفر أو غيرهما ، رتب على ذلك من التخفيفات ، وسقوط بعض الواجبات ، أو صفاتها وهيئاتها ما هو معروف .

ثم إذا نظر العبد إلى الأعمال الموظفة على العباد في اليوم والليلة المتنوعة من فرض ونفل ، وصلاة وصيام وصدقة وغيرها ، وأراد أن يقتدي فيها بأكمل الخلق وإمامهم محمد صلى الله عليه وسلم رأى ذلك غير شاق عليه ، ولا مانع له عن مصالح دنياه ، بل يتمكن معه من أداء الحقوق كلها: حق الله ، وحق النفس ، وحق الأهل والأصحاب ، وحق كل من له حق على الإنسان برفق وسهولة ، وأما من شدد على نفسه فلم يكتف بما اكتفى به النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا بما علمه للأمة وأرشدهم إليه ، بل غلا ، وأوغل في العبادات : فإن الدين يغلبه ، وآخر

أمره العجز والانقطاع ، ولهذا قال : « ولن يَشادَّ الدينَ أحد إلا غلبه» فمن قاوم هذا الدين بشدة وغلو ، ولم يقتصد : غلبه الدين ، واستحسر ورجع القهقرى . ولهذا أمر صلى الله عليه وسلم بالقصد ، وحث عليه . فقال : « والقصد القصد تبلغوا » .

ثم وصى صلى الله عليه وسلم بالتسديد والمقاربة ، وتقوية النفوس بالبشارة بالخير ، وعدم اليأس. فالتسديد : أن يقول الإنسان القول السديد ، ويعمل العمل السديد ، ويسلك الطريق الرشيد ، وهو الإصابة فى أقواله وأفعاله من كل وجه . فإن لم يدرك السداد من كل وجه فليتق الله ما استطاع ، وليقارب الغرض . فمن لم يدرك الصواب كله فليكتف بالمقاربة . ومن عجز عن العمل كله فليعمل منه ما يستطيعه .

ويؤخذ من هذا أصل نافع دل عليه أيضاً قوله تعالى : (٦٤: ١٦ فاتقوا الله ما استطعتم) وقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم» والمسائل المبنية على هذا الأصل لا تنحصر . وفى حديث آخر « يسِّروا ، ولا تعسروا . وبَشِّروا ولا تنفروا » .

ثم ختم الحديث بوصية خفيفة على النفوس ، وهى فى غاية النفع . فقال : «واستعينوا بالغدوة والروحة ، وشيء من الدُّلجة» وهذه الأوقات الثلاثة كما أنها السبب الوحيد لقطع المسافات القريبة والبعيدة فى الأسفار الحسِّية ، مع راحة المسافر ، وراحة راحلته ، ووصوله براحة وسهولة ، فهى السبب الوحيد لقطع السفر الأخروى، وسلوك الصراط

المستقيم ،والسير إلى الله سيراً جميلا فتي أخذ العامل نفسه ، وشغلها بالخير والاعمال الصالحة المناسبة لوقته ـ أول نهاره وآخر نهاره وشيئاً من ليله ، وخصوصاً آخر الليل ـ حصل له من الخير ومن الباقيات الصالحات أكمل حظ ، وأوفر نصيب . ونال السعادة والفوز والفلاح وتم له النجاح في راحة وطمأنينة ، مع حصول مقاصده الدنيوية ، وأغراضه النفسية . وهذا من أكبر الأدلة على رحمة الله بعباده بهذا الدين الذي هو مادة السعادة الأبدية ؛ إذ نصبه لعباده ، وأوضحه على ألسنة رسله ، وجعله ميسراً مسهلا ، وأعان عليه من كل وجه . ولطف بالعاملين ، وحفظهم من القواطع والعوائق .

فعلمت بهذا : أنه يؤخذ من هذا الحديث العظيم عدة قواعد .

القاعدة الأولى : التيسير الشامل للشريعة على وجه العموم .

القاعدة الثانية : المشقة تجلب التيسير وقت حصولها .

القاعدة الثالثة : إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم .

القاعدة الرابعة : تنشيط أهل الأعمال ، وتبشيرهم بالخير والثواب المرتب على الأعمال .

القاعدة الخامسة : الوصية الجامعة في كيفية السير والسلوك إلى الله ، التي تغني عن كل شيء ولا يغني عنها شيء .

فصلوات الله وسلامه على من أوتي جوامع الكلم ونواضها .

الحديث التاسع والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حق المسلم على المسلم ست : قيل: وما هن يا رسول الله ؟ قال : إذا لقيته فسلم عليه . وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمّته . وإذا مرض فعُدْه ، وإذا مات فاتبَعه » رواه مسلم .

هذه الحقوق الستة من قام بها فى حق المسلمين كان قيامه بغيرها أولى . وحصل له أداء هذه الواجبات والحقوق التى فيها الخير الكثير والأجر العظيم من الله .

الأولى : « إذا لقيته فسلم عليه » فإن السلام سبب للمحبة التى توجب الإيمان الذى يوجب دخول الجنة ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا . ولا تؤمنوا حتى تحابوا . أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » والسلام من محاسن الإسلام ؛ فإن كل واحد من المتلاقيين يدعو للآخر بالسلامة من الشرور ، وبالرحمة والبركة الجالبة لكل خير ، ويتبع ذلك من البشاشة وألفاظ التحية المناسبة ما يوجب التآلف والمحبة ، ويزيل الوحشة والتقاطع .

فالسلام حق المسلم . وعلى المسلَّم عليه رد التحية بمثلها أو أحسن منها ، وخير الناس من بدأهم بالسلام .

الثانية : « إذا دعاك فأجبه » أى : دعاك لدعوة طعام و شراب فاجبر خاطر أخيك الذى أدلى إليك وأكرمك بالدعوة ، وأجبه لذلك إلا أن يكون لك عذر .

الثالثة قوله : « وإذا استنصحك فانصح له » أى : إذا استشارك فى عمل من الأعمال : هل يعمله أم لا ؟ فانصح له بما تحبه لنفسك . فإن كان العمل نافعاً من كل وجه فحثه على فعله ، وإن كان مضراً فحذره منـه وإن احتوى على نفع وضرر فاشرح له ذلك ، ووازن بين المصالح والمفاسد . وكذلك إذا شاورك على معاملة أحد من الناس أو تزويجه أو التزوج منه فابذل له محض نصيحتك ، واعمل له من الرأى ما تعمله لنفسك ، وإياك أن تغشه فى شىء من ذلك . فمن غش المسلمين فليس منهم ، وقد ترك واجب النصيحة .

وهذه النصيحة واجبة مطلقاً ، ولـكنها تتأكد إذا استنصحك وطلب منك الرأى النافع . ولهذا قيده فى هذه الحالة التى تتأكد . وقد تقدم شرح الحديث « الدين النصيحة » بما يغنى عن إعادة الـكلام

الرابعة قوله : « وإذا عطس فحمد الله فشمته » وذلك أن العطاس نعمة من الله؛ لخروج هذه الريح المحتقنة فى أجزاء بدن الإنسان ، يسر الله لها منفذاً تخرج منه فيستريح العاطس فشرع له أن يحمد الله على هذه النعمة . وشرع لأخيه أن يقول له : « يرحمك الله » وأمره أن يجيبه بقوله : « يهديكم الله ويصلح بالـكم » فمن لم يحمد الله لم يستحق

التشميت ، ولا يلومن إلا نفسه . فهو الذي فوت على نفسه النعمتين : نعمة الحمد لله ، و نعمة دعاء أخيه له المرتب على الحمد .

الخامسة قوله : « وإذا مرض فعده » عيادة المريض من حقوق المسلم ، وخصوصاً من له حق عليك متأكد ، كالقريب والصاحب ونحوهما . وهي من أفضل الأعمال الصالحة . ومن عاد أخاه المسلم لم يزل يخوض الرحمة ، فإذا جلس عنده غمرته الرحمة . ومن عاده أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي . ومن عاده آخر النهار صلت عليه الملائكة حتى يصبح ، وينبغي للعائد أن يدعو له بالشفاء ، وينفس له ، ويشرح خاطره بالبشارة بالعافية ، ويذكره التوبة والإنابة إلى الله والوصية النافعة . ولا يطيل عنده الجلوس، بل بمقدار العيادة ، إلا أن يؤثر المريض كثرة تردده وكثرة جلوسه عنده ، فلكل مقام مقال .

السادسة قوله : « وإذا مات فاتبعه » فإن من تبع جنازة حتى يصلى عليها فله قيراط من الأجر . فإن تبعها حتى تدفن فله قيراطان . واتباع الجنازة فيه حق لله ، وحق للميت ، وحق لأقاربه الأحياء .

الحديث الثلاثون

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً» رواه البخاري .

هذا من أكبر مِنن الله على عباده المؤمنين : أن أعمالهم المستمرة المعتادة إذا قطعهم عنها مرض أو سفر كتبت لهم كلها كاملة ؛ لأن الله يعلم منهم أنه لولا ذلك المانع لفعلوها ، فيعطيهم تعالى بنياتهم مثل أجور العاملين مع أجر المرض الخاص ، ومع ما يحصل به من القيام بوظيفة الصبر ، أو ما هو أكمل من ذلك من الرضى والشكر ، ومن الخضوع لله والانكسار له . ومع ما يفعله المسافر من أعمال ربما لا يفعلها في الحضر : من تعليم ، أو نصيحة ، أو إرشاد إلى مصلحة دينية أو دنيوية . وخصوصاً في الأسفار الخيرية ، كالجهاد ، والحج والعمرة ، ونحوها .

ويدخل في هذا الحديث : أن من فعل العبادة على وجه ناقص وهو يعجز عن فعلها على الوجه الأكمل ، فإن الله يكمل له بنيته ما كان يفعله لو قدر عليه ؛ فإن العجز عن مكملات العبادات نوع مرض . والله أعلم

ومن كان من نيته عمل خير ، ولكنه اشتغل بعمل آخر أفضل منه ، ولا يمكنه الجمع بين الأمرين : فهو أولى أن يكتب له ذلك العمل الذي منعه منه عمل أفضل منه ، بل لو اشتغل بنظيره . وفضل الله تعالى عظيم .

الحديث الحادى والثلاثون

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أسرعوا بالجنازة. فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه . وإن تك غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم » متفق عليه .

هذا الحديث محتو على مسائل أصولية وفروعية .

فقوله صلى الله عليه وسلم : « أسرعوا بالجنازة » يشمل الإسراع بتغسيلها وتكفينها وحملها ودفنها ، وجميع متعلقات التجهيز . ولهذا كانت هذه الأمور من فروض الكفاية . ويستثنى من هذا الإسراع إذا كان التأخير فيه مصلحة راجحة ، كأن يموت بغتة ، فيتعين تأخيره حتى يتحقق موته : لئلا يكون قد أصابته سكتة . وينبغى أيضاً تأخيره لكثرة الجمع ، أو لحضور من له حق عليه من قريب ونحوه . وقد علل ذلك بمنفعة الميت لتقديمه لما هو خير له من النعيم ، أو لمصلحة الحى بالسرعة فى الإبعاد عن الشر .

وإذا كان هذا مأموراً به فى أمور تجهيزه ، فمن باب أولى الإسراع فى إبراء ذمته من ديون وحقوق عليه ، فإنه إلى ذلك أحوج .

وفيه : الحث على الاهتمام بشأن أخيك المسلم حيا وميتاً ، وبالإسراع إلى ما فيه خير له فى دينه ودنياه . كما أن فيه : الحث على البعد عن أسباب الشر ، ومباعدة المجرمين ، حتى فى الحالة التى يبتلى الإنسان فيها بمباشرتهم .

وفى هذا الحديث : إثبات نعيم البرزخ وعذابه وقد تواترت بذلك الأحاديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن مبتدأ ذلك: وضعه فى قبره إذا تم دفنه ، ولهذا يشرع فى هذه الحال الوقوف على قبره والدعاء له ، والاستغفار ، وسؤال الله له الثبات .

وفى هذا أيضاً : التنبيه على أسباب نعيم البرزخ وعذابه ، وأن أسباب النعيم : الصلاح ؛ لقوله : « فإن كانت صالحة » والصلاح كلمة جامعة تحتوى على تصديق الله ورسوله ، وطاعة الله ورسوله . فهو تصديق الخبر ، وامتثال الأمر ، واجتناب النهى ، وأن العذاب سببه الإخلال بالصلاح : إما لشك فى الدين ، أو اجتراء على المحارم ، أو لترك شىء من الواجبات والفرائض . وجميع الأسباب المفصلة فى الأحاديث والآثار ترجع إلى ذلك . ولذلك قال تعالى : (٩٢ : ١٥ ، ١٦ لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى) كذب الخبر ، وتولى عن الأمر .

الحديث الثانى والثلاثون

عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس فيما دون خمسة أوسق من التمر صدقة . وليس فيما دون خمس أواقٍ من الوَرِق صدقة . وليس فيما دون خمس ذَوْدٍ صدقة » متفق عليه .

اشتمل هذا الحديث على تحديد أنصبة الأموال الزكوية الغالبة ، والتى تجب فيه الزكاة : الحبوب ، والثمار ، والمواشى من الأنعام الثلاثة والنقود ، وما يتفرع عنها من عروض التجارة .

أما زكاة الحبوب والثمار : فإن نص هذا الحديث أن نصابها خمسة أوسق . فما دون ذلك لا زكاة فيه . والوَسْق : ستون صاعاً بصاع النبى صلى الله عليه وسلم . فتكون الخمسة الأوسق ثلاثمائة صاع . فمن بلغت حبوب زرعه أومَغَلّ ثمره هذا المقدار فأكثر : فعليه زكاته فيما سُقى بمؤونة نصف العشر ، وفيما سقي بغير مؤونة العشر .

وأما زكاة المواشى : فليس فيما دون خمس من الإبل شيء . فإذا بلغت خمسا : ففيها شاة . ثم فى كل خمس شاة ، إلى خمس وعشرين : فتجب فيها بنت مخاض ، وهى التى تم لها سنة . وفى ست وثلاثين: بنت لبون ، لها سنتان . وفى ست وأربعين : حِقَّةٌ ، لها ثلاث سنين . وفى إحدى وستين : جَذَعة ، لها أربع سنين . وفى ست وسبعين: بنتا لبون، وفى إحدى وتسعين : حقتان . فإذا زادت على عشرين ومائة : ففى كل أربعين بنت لبون ، وفى كل خمسين حقة .

وأما نصاب البقر: فالثلاثون فيها تَبيع أو تبيعة، له سنة. وفي أربعين مُسِنَّة، لها سنتان. ثم في كل ثلاثين تبيع. وفي كل أربعين مسنة.

وأما نصاب الغنم: فأقله أربعون، وفيها شاة. وفي إحدى وعشرين ومائة: شاتان. وفي مائتين وواحدة: ثلاث شياه. ثم في كل مائة: شاة، وما بين الفرضين يقال له: «وَقْص» في المواشي خاصة، لا شيء فيه، بل هو عفو.

وأما بقية الحيوانات، كالخيل والبغال والحمير وغيرها: فليس فيه زكاة، إلا إذا أعد للبيع والشراء.

وأما نصاب النقود من الفضة: فأقله خمس أواق. والأُوقية أربعون درهما. فمتى بلغت عنده مائتا درهم: ففيه ربع العشر. وكذلك ما تفرع عن النقدين من عروض التجارة. وهو كل ما أعد للبيع والشراء لأجل المكسب والربح، فيُقَوَّم إذا حال الحول بقيمة النقود، ويخرج عنه ربع العشر. ولا بد في جميعها من تمام الحول إلا الحبوب والثمار، فإنها تخرج زكاتها وقت الحصاد والجذاذ، قال تعالى: (٦ : ١٤١ وآتوا حَقَّه يوم حصاده).

فهذه أصناف الأموال التي تجب فيها الزكاة.

وأما مصرفها: فللأصناف الثمانية المذكورين في قوله تعالى: (٩ : ٦٠ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب، والغارمين، وفي سبيل الله، وابن السبيل. فريضة من الله. والله عزيز حكيم).

الحديث الثالث والثلاثون

عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ومن يستعفف يُعِفَّه الله . ومن يستغن يُغْنه الله . ومن يَتَصَبَّر يُصَبِّره الله . وما أُعطِيَ أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » متفق عليه .

هذا الحديث اشتمل على أربع جمل جامعة نافعة .

إحداها : قوله : « ومن يستعفف يعفه الله »

والثانية : قوله : « ومن يستغن يغنه الله »

وهاتان الجملتان متلازمتان ، فإن كمال العبد في إخلاصه لله رغبة ورهبة وتعلقاً به دون المخلوقين ، فعليه أن يسعى لتحقيق هذا الكمال ، ويعمل كل سبب يوصله إلى ذلك ، حتى يكون عبداً لله حقاً حُرًّا من رق المخلوقين . وذلك بأن يجاهد نفسه على أمرين : انصرافها عن التعلق بالمخلوقين بالاستعفاف عما في أيديهم . فلا يطلبه بمقاله ولا بلسان حاله . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لعمر : « ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه . ومالا فلا تتبعه نفسك » فقطع الإشراف في القلب والسؤال باللسان ، تعففاً وترفعاً عن مِنن الخلق ، وعن تعلق القلب بهم : سبب قوى لحصول العفة .

وتمام ذلك : أن يجاهد نفسه على الأمر الثاني : وهو الاستغناء بالله ، والثقة بكفايته ، فإنه من يتوكل على الله فهو حسبه . وهذا هو المقصود . والأول وسيلة إلى هذا . فإن من استعف عما في أيدى الناس

ومما يناله منهم : أوجب له ذلك أن يقوى تعلقه بالله ، ورجاؤه وطمعه في فضل الله وإحسانه ، ويحسن ظنه وثقته بربه . والله تعالى عند حسن ظن عبده به إن ظن خيراً فله : وإن ظن غيره فله . وكل واحد من الأمرين يمد الآخر فيقويه . فكلما قوى تعلقه بالله ضعف تعلقه بالمخلوقين وبالعكس .

ومن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : «اللهم إني أسألك الهدى والتقى ، والعفاف والغنى» فجمع الخير كله في هذا الدعاء . فالهدى : هو العلم النافع . والتقى : العمل الصالح ، وترك المحرمات كلها . هذا صلاح الدين

وتمام ذلك بصلاح القلب ، وطمأنينته بالعفاف عن الخلق ، والغنى بالله . ومن كان غنياً بالله فهو الغنى حقاً ، وإن قلت حواصله . فليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى القلب . وبالعفاف والغنى يتم للعبد الحياة الطيبة ، والنعيم الدنيوي ، والقناعة بما آتاه الله .

والثالثة قوله : « ومن يتصبر يصبره الله »

ثم ذكر في الجملة الربعة : أن الصبر إذا أعطاه الله العبد فهو أفضل العطاء وأوسعه وأعظمه ، إعانة على الأمور . قال تعالى : (٢ : ٤٥ واستعينوا بالصبر والصلاة) أي : على أموركم كلها .

والصبر كسائر الأخلاق يحتاج إلى مجاهدة للنفس وتمرينها . فلهذا قال : «ومن يتصبر» أي : يجاهد نفسه على الصبر «يصبره الله» ويعينه . وإنما كان الصبر أعظم العطايا ، لأنه يتعلق بجميع أمور العبد وكمالاته .

وكل حالة من أحواله تحتاج إلى صبر . فإنه يحتاج إلى الصبر على طاعة الله ، حتى يقوم بها ويؤديها . وإلى صبر عن معصية الله حتى يتركها لله وإلى صبر على أقدار الله المؤلمة ، فلا يتسخطها . بل إلى صبر على نعم الله ومحبوبات النفس، فلا يدع النفس تمرح وتفرح الفرح المذموم ، بل يشتغل بشكر الله ، فهو فى كل أحواله يحتاج إلى الصبر. وبالصبر ينال الفلاح . ولهذا ذكر الله أهل الجنة فقال : (١٣ : ٣٣ ، ٣٤ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) وكذلك قوله : (٢٥ : ٧٥ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا) فهم نالوا الجنة بنعيمها ، وأدركوا المنازل العالية بالصبر. ولكن العبد يسأل الله العافية من الابتلاء الذى لا يدرى ما عاقبته ، ثم إذا ورد عليه فوظيفته الصبر. فالعافية هى المطلوبة بالإصالة فى أمور الابتلاء والامتحان . والصبر يؤمر به عند وجود أسبابه ومتعلقاته . والله هو المعين .

وقد وعد الله الصابرين فى كتابه وعلى لسان رسوله أموراً عالية جليلة . وعدهم بالإعانة فى كل أمورهم ، وأنه معهم بالعناية والتوفيق والتسديد ، وأنه يحبهم ويثبت قلوبهم وأقدامهم ، ويلقى عليهم السكينة والطمأنينة ، ويسهل لهم الطاعات ، ويحفظهم من المخالفات ، ويتفضل عليهم بالصلوات والرحمة والهداية عند المصيبات . والله يرفعهم إلى أعلى المقامات فى الدنيا والآخرة . وعدهم النصر ، وأن ييسرهم لليسرى ويجنبهم العسرى . ووعدهم بالسعادة والفلاح والنجاح ، وأن يوفيهم

أجرهم بغير حساب ، وأن يخلف عليهم فى الدنيا أكثر مما أخذ منهم من محبوباتهم ، وأحسن ، بعوضهم عن وقوع المكروهات عوضاً عاجلا يقابل أضعاف أضعاف ما وقع عليهم من كريهة ومصيبة . وهو فى ابتدائه صعب شديد . وفى انتهائه سهل حميد العواقب . كما قيل :

والصبر مثل اسمه مُرٌّ مذاقته
لكن عواقبه أحلى من العسل

الحديث الرابع والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « ما نقصت صـدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً . وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » رواه مسلم

هذا الحديث احتوى على فضل الصدقة ، والعفو والتواضع ، وبيان ثمراتهـا العاجلة والآجلة ، وأن كل ما يتوهمه المتوهم من نقص الصدقة للمال ، ومنافاة العفو للعز ، والتواضع للرفعة : وهم غالط ، وظن كاذب .

فالصدقة لا تنقص المال ؛ لأنه لو فرض أنه نقص من جهة ، فقد زاد من جهات أُخر ؛ فإن الصدقة تبارك المال ، وتدفع عنه الآفات وتنميه ، وتفتح للمتصدق من أبواب الرزق وأسباب الزيادة أموراً ما تفتح على غيره . فهل يقابل ذلك النقص بعض هذه الثمرات الجليلة ؟

فالصدقة لله التي في محلها لا تنفد المال قطعاً ، ولا تنقصه بنص النبي صلى الله عليه وسلم ، وبالمشاهدات والتجربات المعلومة . هذا كله سوى ما لصاحبها عند الله : من الثواب الجزيل ، والخير والرفعة .

وأما العفو عن جنايات المسيئين بأقوالهم وأفعالهم : فلا يتوهم منه الذل ، بل هذا عين العز ، فإن العز هو الرفعة عند الله وعند خلقه ، مع القدرة على قهر الخصوم والأعداء .

ومعلوم ما يحصل للعـافي من الخير والثناء عند الخلق وانقلاب العدو صديقاً ، وانقلاب الناس مع العافي ، ونصرتهم له بالقول والفعل

على خصمه ، ومعاملة الله له من جنس عمله ، فإن من عفا عن عباد الله عفا الله عنه . وكذلك المتواضع لله ولعباده يرفعه الله درجات ؛ فإن الله ذكر الرفعة فى قوله : (٥٨ : ١١ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) فمن أجلّ ثمرات العلم والإيمان : التواضع ؛ فإنه الانقياد الكامل للحق ، والخضوع لأمر الله ورسوله ؛ امتثالا للأمر ، واجتنابا للنهى ، مع التواضع لعباد الله ، وخفض الجناح لهم ، ومراعاة الصغير والكبير ، والشريف والوضيع . وضد ذلك التكبر ؛ فهو غمط الحق ، واحتقار الناس .

وهذه الثلاث المذكورات فى هذا الحديث : مقدمات صفات المحسنين . فهذا محسن فى ماله ، ودفع حاجة المحتاجين . وهذا محسن بالعفو عن جنايات المسيئين . وهذا محسن إليهم بحلمه وتواضعه، وحسن خلقه مع الناس أجمعين . وهؤلاء قد وسعوا الناس بأخلاقهم وإحسانهم ورفعهم الله فصار لهم المحل الأشرف بين العباد ، مع ما يدخر الله لهم من الثواب .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم : « وما تواضع أحد لله » تنبيه على حسن القصد والإخلاص لله فى تواضعه ؛ لأن كثيراً من الناس قد يظهر التواضع للأغنياء ليصيب من دنياهم ، أو للرؤساء لينال بسببهم مطلوبه . وقد يظهر التواضع رياء وسمعة . وكل هذه أغراض فاسدة . لا ينفع العبد إلا التواضع لله تقربا إليه ، وطلبا لثوابه ، وإحسانا إلى الخلق ؛ فكمال الإحسان وروحه الإخلاص لله .

الحديث الخامس والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل عمل ابن آدم يضاعف : الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال الله تعالى : إلا الصوم . فإنه لي ، وأنا أجزي به ؛ يدع شهوته وطعامه من أجلي . للصائم فرحتان : فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه . ولَخَلُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . والصوم جُنَّة . وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّه أحد أو قاتله ، فليقل : إني امرؤ صائم » متفق عليه :

ما أعظم هذا الحديث ؛ فإنه ذكر الأعمال عموماً، ثم الصيام خصوصاً وذكر فضله وخواصه ، وثوابه العاجل والآجل، وبيان حكمته، والمقصود منه ، وماينبغي فيه من الآداب الفاضلة. كلها احتوى عليها هذا الحديث

فبين هذا الأصل الجامع ، وأن جميع الأعمال الصالحة ـ من أقوال وأفعال ، ظاهرة أو باطنة ، سواء تعلقت بحق الله ، أو بحقوق العباد ـ مضاعفة من عشر إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة .

وهذا من أعظم ما يدل على سعة فضل الله ، وإحسانه على عباده المؤمنين ؛ إذ جعل جناياتهم ومخالفاتهم الواحدة بجزاء واحد ، ومغفرة الله تعالى فوق ذلك .

وأما الحسنة : فأقل التضعيف أن الواحدة بعشر . وقد تزيد على ذلك بأسباب .

منها : قوة إيمان العامل ، وكمال إخلاصه . فكلما قوى الإيمان والإخلاص تضاعف ثواب العمل .

ومنها : أن يكون للعمل موقع كبير ، كالنفقة فى الجهاد والعلم ، والمشاريع الدينية العامة ، وكالعمل الذى قوى بحسنه وقوته ودفعه المعارضات ، كما ذكره صلى الله عليه وسلم فى قصة أصحاب الغار ، وقصة البَغِيّ التى سقت الكلب، فشكر الله لها وغفر لها . ومثل العمل الذى يثمر أعمالاً أخر ، ويقتدى به غيره ، أو يشاركه فيه مشارك ، وكدفع الضرورات العظيمة ، وحصول المبرات الكبيرة ، وكالمضاعفة لفضل الزمان أو المكان ، أو العامل عند الله .

فهذه المضاعفات كلها شاملة لكل عمل .

واستثنى فى هذا الحديث الصيام ، وأضافه إليه ، وأنه الذى يجزى به بمحض فضله وكرمه ، من غير مقابلة للعمل بالتضعيف المذكور الذى تشترك فيه الأعمال . وهذا شىء لا يمكن التعبير عنه ، بل يجازيهم بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر

وفى الحديث كالتنبيه على حكمة هذا التخصيص ، وأن الصائم لما ترك محبوبات النفس التى طبعت على محبتها ، وتقديمها على غيرها ، وأنها من الأمور الضرورية ، فقدم الصائم عليها محبة ربه ، فتركها لله فى حالة لا يطلع عليها إلا الله ، وصارت محبته لله مقدمة وقاهرة لكل محبة نفسية ، وطلب رضاه وثوابه مقدماً على تحصيل الأغراض النفسية .

فلهذا اختصه الله لنفسه ، وجعل ثواب الصائم عنده . فما ظنك بأجر وجزاء تكفل به الرحمن الرحيم الكريم المنان ، الذى عمت مواهبه جميع الموجودات ، وخص أولياءه منها بالحظ الأوفر ، والنصيب الأكمل ، وقدر لهم من الأسباب والألطاف التى ينالون بها ما عنده على أمور لا تخطر له بالبال . ولا تدور فى الخيال ؟ فما ظنك أن يفعل الله بهؤلاء الصائمين المخلصين ؟

وهنا يقف القلم ،ويسيح قلب الصائم فرحا وطربا بعمل اختصه الله لنفسه ، وجعل جزاءه من فضله المحض ، وإحسانه الصرف . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

ودل الحديث على أن الصيام الكامل هو الذى يدع العبد فيه شيئين : المفطرات الحسية ، من طعام وشراب ونكاح وتوابعها . والمنقصات العملية ، فلا يرفث ولا يصخب ، ولا يعمل عملا محرما ، ولا يتكلم بكلام محرم . بل يجتنب جميع المعاصى ، وجميع المخاصمات والمنازعات المحدثة للشحناء . ولهذا قال: «فلا يرفث» أى : يتكلم بكلام قبيح « ولا يصخب » بالكلام المحدث للفتن والمخاصمات . كما قال فى الحديث الآخر : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه »

فمن حقق الأمرين : ترك المفطرات ، وترك المنهيات، تم له أجر الصائمين . ومن لم يفعل ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

ثم أرشد الصائم إذا عرض له أحد يريد مخاصمته ومشاتمته أن يقول له بلسانه : « إنى صائم »

وفائدة ذلك : أن يريد كأنه يقول : اعلم أنه ليس بى عجز عن مقابلتك على ما تقول ، ولكنى صائم ، أحترم صيامى وأراعى كماله ، وأمر الله ورسوله . واعلم أن الصيام يدعونى إلى ترك المقابلة ، ويحثنى على الصبر . فما عملته أنا خير وأعلى مما عملته معى أيها المخاصم .

وفيه: العناية بالأعمال كلها من صيام وغيره ، ومراعاة تكميلها ، والبعد عن جميع المنقصات لها ، وتذكر مقتضيات العمل ، وما يوجبه على العامل وقت حصول الأسباب الجارحة للعمل .

وقوله : «الصيام جُنَّة» أى : وقاية يتقى بها العبد الذنوب فى الدنيا ويتمرن به على الخير ، ووقاية من العذاب .

فهذا من أعظم حكم الشارع من فوائد الصيام ، وذلك لقوله تعالى : (٢ : ١٨٣ يا أيها الذين آمنوا ، كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ؛ لعلكم تتقون) فكون الصوم جنة ، وسبب لحصول التقوى : هو مجموع الحكم التى فصلت فى حكمة الصيام وفوائده ، فإنه يمنع من المحرمات أو يخففها ، ويحث على كثير من الطاعات .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « للصائم فرحتان : فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه »

هذان ثوابان : عاجل ، وآجل .

فالعاجل : مشاهد إذا أفطر الصائم فرح بنعمة الله عليه بتكميل الصيام . وفرح بنيل شهواته التى منع منها فى النهار .

والآجل : فرحه عند لقاء ربه برضوانه وكرامته . وهذا الفرح المعجل نموذج ذلك الفرح المؤجل ، وأن الله سيجمعهما للصائم .

وفيه : الإشارة إلى أن الصائم إذا قارب فطره ، وحصلت له هذه الفرحة ، فإنها تقابل ما مر عليه في نهاره من مشقة ترك الشهوات . فهى من باب التنشيط ، وإنهاض الهمم على الخير .

وقوله : « ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

الخلوف : هو الأثر الذي يكون فى الفم من رائحة الجوف عند خلوه من الطعام وتصاعد الأبخرة . فهو وإن كان كريها للنفوس ، فلا تحزن أيها الصائم : فإنه أطيب عند الله من ريح المسك ، فإنه متأثر عن عبادته والتقرب إليه . وكل ما تأثر عن العبادات من المشقات والكريهات فهو محبوب لله . ومحبوب الله عند المؤمن مقدم على كل شىء .

الحديث السادس والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إليَّ عبد بشيء أحب إلي مما افترضت عليه. وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنه. وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن: يكره الموت، وأكره مساءته. ولا بد له منه » رواه البخاري.

هذا حديث جليل، أشرف حديث في أوصاف الاولياء، وفضلهم ومقاماتهم.

فأخبر أن معاداة أوليائه معاداة له ومحاربة له. ومن كان متصديا لمعاداة الرب ومحاربة مالك الملك فهو مخذول. ومن تكفل الله بالذبّ عنه فهو منصور. وذلك لكمال موافقة أولياء الله لله في محابه؛ فأحبهم وقام بكفايتهم، وكفاهم ما أهمهم.

ثم ذكر صفة الأولياء الصفة الكاملة، وأن أولياء الله هم الذين تقربوا إلى الله بأداء الفرائض أولا: من صلاة وصيام وزكاة وحج، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وجهاد، وقيام بحقوقه وحقوق عباده الواجبة.

ثم انتقلوا من هذه الدرجة إلى التقرب إليه بالنوافل ، فإن كل جنس من العبادات الواجبة مشروع من جنسه نوافل فيها فضائل ، عظيمة تكمل الفرائض ، وتكمل ثوابها .

فأولياء الله قاموا بالفرائض والنوافل ، فتولاهم وأحبهم وسهل لهم كل طريق يوصلهم إلى رضاه . ووفقهم وسددهم فى جميع حركاتهم ، فإن سمعوا سمعوا بالله . وإن أبصروا فلله . وإن بطشوا أو مشوا ففى طاعة الله .

ومع تسديده لهم فى حركاتهم جعلهم مجابى الدعوة : إن سألوه أعطاهم مصالح دينهم ودنياهم ، وإن استعاذوه من الشرور أعاذهم .

ومع ذلك لطف بهم فى كل أحوالهم ، ولولا أنه قضى على عباده بالموت لسلم منه أولياءه ؛ لأنهم يكرهونه لمشقته وعظمته . والله يكره مساءتهم ، ولكن لما كان القضاء نافذا كان لا بد لهم منه .

فبين فى هذا الحديث : صفة الأولياء ، وفضائلهم المتنوعة ، وحصول محبة الله لهم التى هى أعظم ما تنافس فيه المتنافسون ، وأنه معهم وناصرهم ، ومؤيدهم ومسددهم ، ومجيب دعواتهم .

ويدل هذا الحديث على : إثبات محبة الله ، وتفاوتها لأوليائه بحسب مقاماتهم .

ووصف النبى صلى الله عليه وسلم لأولياء الله بأداء الفرائض والإكثار من النوافل ، ومطابق لوصف الله لهم بالإيمان والتقوى فى

قوله : (١٠ : ٦٢ ، ٦٣ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله وليا ؛ لأن الإيمان يشمل العقائد ، وأعمال القلوب والجوارح . والتقوى ترك جميع المحرمات .

ويدل على أصل عظيم : وهو أن الفرائض مقدمة على النوافل ، وأحب إلى الله وأكثر أجراً وثواباً . لقوله : « وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه » ، وأنه عند التزاحم يتعين تقديم الفروض على النوافل .

الحديث السابع والثلاثون

عن حكيم بن حزام رضى الله عنه قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « البيّعان بالخيار ما لم يتفرقا . فإن صدقا وبيّنا : بورك لهما فى بيعهما . وإن كذبا وكتما : محقت بركة بيعهما » متفق عليه .

هذا الحديث أصل فى بيان المعاملات النافعة ، والمعاملات الضارة وأن الفاصل بين النوعين : الصدق والبيان .

فمن صدق فى معاملته ، وبين جميع ما تتوقف عليه المعاملة من الأوصاف المقصودة ، ومن العيوب والنقص . فهذه معاملة نافعة فى العاجل بامتثال أمر الله ورسوله ، والسلامة من الإثم ، وبنزول البركة فى معاملته . وفى الآجلة بحصول الثواب ، والسـلامة من العقاب .

ومن كذب وكتم العيوب ، وما فى المعقود عليه من الصفات فهو مع إثمه معاملته ممحوقة البركة . ومتى نزعت البركة من المعاملة خسر صاحبها دنياه وأخراه .

ويستدل بهذا الأصـل على تحريم التدليس ، وإخفاء العيوب ، وتحريم الغش ، والبخس فى الموازين والمـكاييل والذرع وغيرها ؛ فإنها من الكذب والكتمان . وكذلك تحريم النجش ، والخداع فى المعاملات وتلقى الجلب ليبيعهم ، أو يشترى منهم .

ويدخل فيه: الكذب فى مقدار الثمن والمثمن، وفى وصف المعقود عليه ، وغير ذلك .

وضابط ذلك : أن كل شيء تكره أن يعاملك فيه أخوك المسلم أو غيره ولا يخبرك به ، فإنه من باب الكذب والإخفاء والغش .

ويدخل في هذا : البيع بأنواعه ، والإجارات ، والمشاركات وجميع المعاوضات ، وآجالها ووثائقها . فكلها يتعين على العبد فيها ، الصدق والبيان ، ولا يحل له الكذب والكتمان .

وفي هذا الحديث : إثبات خيار المجلس في البيع ،وأن لكل واحد من المتبايعين الخيار بين الإمضاء أو الفسخ ، ماداما في محل التبايع . فإذا تفرّقا ثبت البيع ووجب ، وليس لواحد منهما بعد ذلك الخيار إلا بسبب يوجب الفسخ ، كخيار شرط ، أو عيب يجده قد أُخفي عليه ،أو تدليس أو تعذر معرفة ثمن ، أو مثمن .

والحكم في إثبات خيار المجلس : أن البيع يقع كثيراً جداً ، وكثيرا ما يندم الإنسان على بيعه أو شرائه ؛ فجعل له الشارع الخيار ؛ كي يتروى وينظر حاله: هل يمضي ، أو يفسخ ؟ والله أعلم .

الحديث الثامن والثلاثون

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع الحصاة ، وعن بيع الغَرر » رواه مسلم .

وهذا كلام جامع لكل غرر . والمراد بالغَرر : المخاطرة والجهالة . وذلك داخل فى الميسر ، فإن الميسر كما يدخل فى المغالبات والرهان ـ إلا رهان سباق الخيل والإبل والسهام ـ فكذلك يدخل فى أمور المعاملات

فكل بيع فيه خطر : هل يحصل المبيع ، أو لا يحصل ؟ — كبيع الآبق والشارد والمغصوب من غير غاصبه ، أو غير القادر على أخذه ، وكبيع مافى ذمم الناس ـ وخصوصاً المماطلين والمعسرين ـ فإنه داخل فى الغرر .

وكذلك كل بيع فيه جهالة ظاهرة يتفاوت فيها المقصود ؛ فإنها داخلة فى بيع الغرر ، كبيعه مافى بيته من المتاع ، أومافى دكانه ، أومافى هذا الموضع ، وهو لايدرى به ولا يعلمه ، أو بيع الحصاة التى هى مثال من أمثلة الغرر ، كأن يقول : ارم هذه الحصاة ، فعلى أيّ متاع وقعت ، فهو عليك بكذا ، أو ارمها فى الأرض فما بلغته من المدى ، فهو لك بكذا ، أو بيع المنابذة أو الملامسة ، أو بيع مافى بطون الأنعام ، وماأشبه ذلك : فكل ذلك غرر واضح .

ومن حكمة الشارع : تحريم هذا النوع ؛ لما فيه من المخاطرات ، وإحداث العداوات التى قد يغبن فيها أحدهما الآخر غبناً فاحشاً مضراً .

ولهذا اشترط العلماء للبيع : العلم بالمبيع ، والعلم بالثمن .

واشترطوا أيضاً : أن يكون العاقد جائز التصرف، بأن يكون بالغاً عاقلا رشيداً ؛ لأن العقد مع الصغير أو غير الرشيد لا بد أن يحصل به غبن مضر . وذلك من الغرر .

وكذلك اشترطوا : العلم بالأجل ، إذا كان الثمن أو بعضه ، أو المبيع في السلم مؤجلا ؛ لأن جهالة الأجل تصيِّر العقد غرراً .

وكما يدخل في النهي عن بيع الغرر ، الغررُ الذي يتفقان عليه فمن باب أولى أن يدخل فيه التغرير ، وتدليس أحدهما على الآخر شيئاً من أمور المعاملة : من معقود به ، أو عليه ، أو شيء من صفاته .

والغش كله داخل في التغرير وأفراد الغش وتفاصيله ، لا يمكن ضبطها . وهي معروفة بين الناس .

وحاصل بيع الغرر يرجع إلى بيع المعدوم ، كحبَل الحبَلة ، والسنين، أو بيع المعجوز عنه ، كالآبق ونحوه ، أو بيع المجهول المطلق في ذاته ، أو جنسه ، أو صفاته .

الحديث التاسع والثلاثون

عن عمرو بن عوف المزنى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « الصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً حرم حلالا، أو أحل حراماً . والمسلمون على شروطهم ، إلا شرطا حرم حلالا ، أو أحل حراماً » رواه أهل السنن إلا النسائى .

جمع فى هذا الحديث الشريف بين أنواع الصلح والشروط ـ صحيحها وفاسدها ـ بكلام يشمل من أنواع العلم وأفراده ما لا يحصى ، بحد واضح بيِّن .

فأخبر أن الأصل فى الصلح : أنه جائز لا بأس به ، إلا إذا حرم الحلال ، أو أحل الحرام . وهذا كلام محيط ، يدخل فيه جميع أقسام الصلح . والصلح خير : لما فيه من حسم النزاع ، وسلامة القلوب ، وبراءة الذمم .

فيدخل فيه : الصلح فى الأموال فى الإقرار ، بأن يقرَّ له بدين ، أو عين ، أو حق ، فيصالحه عنه ببعضه أو بغيره .

وصلح الإنكار ، بأن يدعى عليه حقاً من دين ، أو عين، فينكر . ثم يتفقان على المصالحة عن هذا بعين أو دين ، أو منفعة أو إبراء ، أو غيره : فكل ذلك جائز .

وكذلك الصلح عن الحقوق المجهولة ، كأن يكون بين اثنين معاملة

طويلة ، اشتبه فيها ثبوت الحق على أحدهما أو عليهما ، أو اشتبه مقداره ، فيتصالحان على ما يتفقان عليه ، ويتحريان العدل .

وتمام ذلك: أن يحالل كل منهما الآخر ، أو يكون بين اثنين مشاركة فى ميراث أو وقف ، أو وصية أو مال آخر : من ديون ، أو أعيان ، ثم يتصالحان عن ذلك بما يريانه أقرب إلى العدل والصواب .

وكذلك يدخل فى ذلك: المصالحة بين الزوجين فى حق من حقوق الزوجية : من نفقة أو كسوة أو مسكن أو غيرها ، ماضية أو حاضرة ، وإن اقتضت الحال أن يفض أحدهما عن بعض حقه ؛ لاستيفاء بقيته ، أو لبقاء الزوجية ، أو لزوال الفصل ، أو لغير ذلك من المقاصد ، فكل ذلك حسن . كما قال تعالى فى حقهما : (٤ : ١٢٨ ولا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ، والصلح خير) .

وكذلك الصلح عن القصاص فى النفوس ، أو الأطراف بمال يتفقان عليه ، أو المعاوضة عن ديات النفوس والأطراف والجروح ، أو يصلح الحاكم بين الخصوم بما تقتضيه الحال ، متحرياً فى ذلك مصلحتهما جميعاً .

فكل هذا داخل فى قوله صلى الله عليه وسلم : « الصلح جائز بين المسلمين » .

فإن تضمن الصلح تحريم الحلال ، أو تحليل الحرام ، فهو فاسد بنص هذا الحديث ، كالصلح على رق الأحرار ، أو إباحة الفروج

المحرمة ، أو الصلح الذى فيه ظلم . ولهذا قيده الله بقوله تعالى : (٤٩:٩ فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين) .

أو صلح اضطرار كالمكره ، وكالمرأة إذا عضلها زوجها ظلماً لتفتدى منه ، وكالصلح على حق الغير بغير إذنه وما أشبه ، ذلك ، فهذا النوع صلح محرم غير صحيح .

وأما الشروط : فأخبر فى هذا الحديث أن المسلمين على شروطهم ، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالا ، وهذا أصل كبير . فإن الشروط هى التى يشترطها أحد المتعاقدين على الآخر مما له فيه حظ ومصلحة ، فذلك جائز . وهو لازم إذا وافقه الآخر عليه ، واعترف به .

وذلك مثل إذا اشترط المشترى فى المبيع وصفاً مقصودا ، كشرط العبد كاتباً ، أو يحسن العمل الفلانى ، أو الدابة هملاجة أو لبوناً ، أو الجارح صيوداً ، أو الجارية بكراً أو جميلة أو فيها الوصف الفلانى المقصود .

ومثل أن يشترط المشترى : أن الثمن أو بعضه مؤجل بأجل مسمى ، أو يبيع الشىء ويشترط البائع : أن ينتفع به مدة معلومة ، كما باع جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما للنبى صلى الله عليه وسلم جمله ، واشترط ظهره إلى المدينة .

ومثل أن يشترط سكنى البيت ، أو الدكان مدة معلومة ، أو يستعمل الإناء .

مدة معلومة ، وما أشبه ذلك .

وكذلك شروط الرهن والضمان والكفالة هي من الشروط الصحيحة اللازمة .

ومثل الشروط التي يشترطها المتشاركان في مضاربة ، أو شركة عنان ، أو وجوه ، أو أبدان ، أو مساقاة ، أو مزارعة : فكلها صحيحة ، إلا شروطاً تحلل الحرام ، وعكسه ، كالتي تعود إلى الجهالة والغرر .

ومثل شروط الواقفين والموصين في أوقافهم ووصاياهم من الشروط المقصودة : فكلها صحيحة ، ما لم تدخل في محرم .

وكذلك الشروط بين الزوجين ، كأن تشترط دارها أو بلدها ، أو نفقة معينة أو نحوها . فإن أحق الشروط أن يوفى به هذا النوع .

الحديث الأربعون

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَطْل الغنىّ ظلم . وإذا أُتبِـع أحدكم على مَلِىء فليَتْبع » . متفق عليه .

تضمن هذا الحديث الأمر بحسن الوفاء ، وحسن الاستيفاء ، والنهى عما يضاد الأمرين أو أحدهما .

فقوله : « مطل الغنى ظلم » أى : المماسرة فى أداء الحق الواجب ظلم ؛ لأنه ترك لواجب العدل ؛ إذ على القادر المبادرة إلى أداء ما عليه ، من غير أن يحوج صاحب الحق إلى طلب وإلحاح ، أو شكاية . فمن فعل ذلك مع قدرته على الوفاء فهو ظالم .

« والغنى » هو الذى عنده موجودات مالية يقدر بها على الوفاء .

ومفهوم الحديث : أن المعسر لا حرج عليه فى التأخير . وقد أوجب الله على صاحب الحق إنظاره إلى الميسرة .

ونفهم من هذا الحديث : أن الظلم المالي لا يختص بأخذ مال الغير بغير حق ، بل يدخل فيه كل اعتداء على مال الغير ، أو على حقه بأى وجه يكون .

فمن غصب مال الغير ، أو سرقه ، أو جحد حقاً عنده للغير ، أو بعضه ، أو ادعى عليه ما ليس له من أصل الحق أو وصفه ، أو ماطله بحقه من وقت إلى آخر ، أو أدى إليه أقل مما وجب له فى ذمته

ـ وصفا أو قدراً ـ فكل هؤلاء ظالمون بحسب أحوالهم . والظلم ظلمات يوم القيامة على أهله .

ثم ذكر فى الجملة الأخرى حسن الاستيفاء ، وأن من له الحق عليه أن يَتّبع صاحبه بمعروف وتيسير ، لا بإزعاج ولا تعسير ، ولا يرهقه من أمره عسراً ، ولا يمتنع عليه إذا وجهه إلى جهة ليس عليه فيها مضرة ولا نقص . فإذا أحاله بحقه على ملىء ـ أي : قادر على الوفاء غير مماطل ولا ممانع ـ فليحتل عليه ؛ فإن هذا من حسن الاستيفاء والسماحة .

ولهذا ذكر الله تعالى الأمرين فى قوله : (٢ : ١٧٨ فمن عُفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف ، وأداء إليه بإحسان) فأمر صاحب الحق أن يتبع من عليه الحق بالمعروف ، والمستحسن عرفا وعقلا، وأن يؤدى من عليه الحق بإحسان .

وقد دعا صلى الله عليه وسلم لمن اتصف بهذا الوصف الجميل، فقال: « رحم الله عبداً سَمْحاً إذا باع ، سمحا إذا اشترى ، سمحا إذا قضى ، سمحا إذا اقتضى » .

فالسماحة فى مباشرة المعاملة ، وفى القضاء ، والاقتضاء ، يرجى لصاحبها كل خير : دينى ودنيوى ، لدخوله تحت هذه الدعوة المباركة التى لا بد من قبولها .

وقد شوهد ذلك عيانا . فإنك لا تجد تاجراً بهذا الوصف إلا رأيت الله قد صب عليه الرزق صباً ، وأنزل عليه البركة . وعكسه

صاحب المعاسرة والتعسير ، وإرهاق المعاملين . والجزاء من جنس العمل . فجزاء التيسير التيسير .

وإذا كان مطل الغنى ظلما: وجب إلزامه بأداء الحق إذا شكاه غريمه . فإن أدى وإلا عُزر حتى يؤدى ، أو يسمح غريمه . ومتى تسبب فى تغريم غريمه بسبب شكايته : فعليه الغرم لما أخذ من ماله ، لأنه هو السبب ، وذلك بغير حق . وكذلك كل من تسبب لتغريم غيره ظلماً فعليه الضمان

وهذا الحديث أصل فى باب الحوالة ، وأن من حُوِّلَ بحقه على مَلِىء فعليه أن يتحول ، وليس له أن يمتنع .

ومفهومه : أنه إذا أحيل على غير ملىء فليس عليه التحول ، لما فيه من الضرر عليه .

والحق الذى يتحول به : هى الديون الثابتة بالذمم ، من قرض أو ثمن مبيع ، أو غيرهما .

وإذا حوله على الملىء فاتبعه : برئت ذمة المحيل ، وتحوَّل حق الغريم إلى من حُوِّلَ عليه . والله أعلم .

الحديث الحادى والأربعون

عن سمرة بن جُنْدب رضى الله عنه قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « على اليد ما أخذت ، حتى تؤدِّيَه » .

رواه أهل السنن إلا النسائى .

وهذا شامل لما أخذته من أموال النـاس بغير حق ، كالغصب ونحوه ، وما أخذته بحق ، كرهن وإجارة .

أما القسم الأول : فهو الغصب . وهو أخذ مال الغير بغير حق بغير رضاه . وهو من أعظم الظلم والمحرمات ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من غصب قيد شبر من الأرض طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين » .

وعلى الغاصب أن يرد ما أخذه ، ولو غَرِم على رده أضعاف قيمته ، ولو صار عليه ضرر فى رده ، لأنه هو الذى أدخل الضرر على نفسه . فإن نقص ردَّه مع أرش نقصه . وعليه أجرته مدة بقائه بيده ، وإن تلف ضمنه .

وأما إذا كانت اليد أخذت مال الغير برضى صاحبه ، بإجارة ، أو رهن ، أو مضاربة ، أو مساقاة ، أو مزارعة ، أو غيرها : فصاحب اليد أمين ؛ لأن صاحب العين قد ائتمنه ، فإن تلفت وهى بيده ، بغير تعدٍّ ولا تفريط : فلا ضمان عليه . وإن تلفت بتفريط فى حفظها أو تعد

عليها : ضمنها ومتى انقضى الغرض منها ردها إلى صاحبها .

ودخل فى هذا الحديث « على اليد ما أخذت حتى تؤديه » .

وكذلك العارية على المستعير أن يردها إلى صاحبها بانقضاء الغرض منها ، أو طلب ربها ؛ لأن العارية عقد جائز لا لازم .

فإن تلفت العارية بغير تعد ولا تفريط . فمن العلماء من ضمّنه ، كما هو المشهور من مذهب الإمام أحمد . ومنهم من لم يضمنه كسائر الأمناء .

ومنهم من فصّل : فإن شرط ضمانها ضمنها ، وإلا فلا . وهو أحسن الأقوال الثلاثة .

ولكن لو وجد المال بيد مجنون ، أو سفيه ، أو صغير ، فأخذه ليحفظه ، فتلف بيده بغير تعدّ ولا تفريط : فإنه محسن ، وما على المحسنين من سبيل .

ولو أخذ اللقطة التى يجوز التقاطها ، فعليه تعريفها عاما كاملا . فإن لم تعرف : فهى لواجدها . فإن وجد صاحبها بعد ذلك ووصفها : سلمها إليه إن كانت موجودة ، وضمنها إن كان قد أتلفها باستعمال أو غيره . وإن تلفت فى حول التعريف بغير تفريط ولا تعد : فلا ضمان على الملتقط ؛ لأنه من جملة الأمناء ، وهى حينئذ لم تدخل فى ملكه . والله أعلم .

الحديث الثانى والأربعون

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : « قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشفعة فى كل ما لم يقسم . فإذا وقعت الحدود ، وصُرفت الطرق ، فلا شفعة » رواه البخارى .

يؤخذ من هذا الحديث : أحكام الشفعة كلها ، وما فيه شفعة ، وما لا شفعة فيه .

والشفعة إنما هى فى الأموال المشتركة . وهى قسمان : عقار وغيره فأثبت فى هذا الحديث الشفعة فى العقار . ودل على أن غير العقار لا شفعة فيه ، فالشركة في الحيوانات ، والأثاثات ، والنقود ، وجميع المنقولات لا شفعة فيها ، إذا باع أحدهما نصيبه منها .

وأما العقارات : فإذا أفرزت وحددت الحدود ، وصرفت الطرق واختار كل من الشريكين نصيبه فلا شفعة فيها ، كما هو نص الحديث لأنه يصير حينئذ جاراً ، والجار لا شفعة له على جاره .

وأما إذا لم تحد الحدود ولم تصرف الطرق ، ثم باع أحدهم نصيبه : فللشريك أو الشركاء الباقين الشفعة ، بأن يأخذوه بالثمن الذى وقع عليه العقد ، كلٌّ على قدر ملكه .

وظاهر الحديث : أنه لا فرق بين العقار الذى تمكن قسمته . وهذا هو الصحيح ؛ لأن الحكمة فى الشفعة ـ وهى إزالة الضرر عن الشريك ـ موجودة فى النوعين . والحديث عام .

وأما ما استدل به على التفريق بين النوعين : فضعيف .

واختلف العلماء فى شفعة الجار على جاره ، إذا كان بينهما حق من حقوق الملكين ، كطريق مشترك ، أو بئر أو نحوهما .

فنهم : من أوجب الشفعة فى هذا النوع ، وقال : إن هذا الاشتراك فى هذا الحق نظير الاشتراك فى جميع الملك ، والضرر فى هذا كالضرر هناك . وهو الذى تدل عليه الأدلة .

ومنهم : من لم يثبت فيه شفعة ، كما هو المشهور من مذهب الإمام أحمد .

ومنهم من أثبت الشفعة للجار مطلقاً . وهذه الصورة عنده من باب أولى ، كما هو مذهب الإمام أبى حنيفة .

والنبى صلى الله عليه وسلم أثبت للشريك الشفعة : إن شاء أخذ ، وإن شاء لم يأخذ ، وهو من جملة الحقوق ، التى لا تسقط إلا بإسقاطها صريحاً ، أو بما يدل على الإسقاط .

وأما اشتراط المبادرة جداً إلى الأخذ بها ، من غير أن يكون له فرصة فى هذا الحق المتفق عليه : فهذا قول لا دليل عليه .

وما استدلوا به من الحديثين اللذين أوردوهما : « الشفعة كحل العقال » ، « الشفعة لمن واثبها » فلم يصح منهما عن النبى صلى الله عليه وسلم شىء .

فالصحيح : أن هذا الحق كغيره من الحقوق من خيار الشرط ، أو العيب أو نحوهما الحق ثابت إلا إن أسقطه صاحبه بقول أو فعل والله أعلم

الحديث الثالث والأربعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعـالى : أنا ثالث الشريكين ، ما لم يَخُن أحدهما صاحبه . فإن خانه خرجت من بينهما » .

رواه أبو داود .

يدل هذا الحديث بعمومه على جواز أنواع الشركات كلها : شركة العنان ، والأبدان ، والوجوه ، والمضاربة ، والمفاوضة وغيرها من أنواع الشركات التي يتفق عليها المتشاركان

ومن منع شيئاً منها فعليه الدليل الدال على المنع ، وإلا فالأصل الجواز ، لهذا الحديث، وشموله ولأن الأصل الجواز في كل المعاملات.

ويدل الحديث على فضل الشركات وبركتهـا ، إذا بنيت على الصـدق والأمانة . فإن من كان الله معه بارك له في رزقه ، ويسر له الاسباب التي ينال بهـا الرزق ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، وأعانه وسدده .

وذلك :لأن الشركات يحصل فيها التعاون بين الشركاء في رأيهم وفي أعمالهم . وقد تكون أعمالا لا يقدر عليها كل واحد بمفرده ، وباجتماع الأعمال والأموال يمكن إدراكها .

والشركات أيضاً يمكن تمريسها وتوسيعها في المكان والأعمال وغيرها .

وأيضاً : فإن الغالب أنها يحصل بها من الراحة ما لا يحصل بتفرد الإنسان بعمله . وقد يجري ويدير أحدهما العمل مع راحة الآخر ، أو ذهابه لبعض مهماته ، أو وقت مرضه .

وهذا كله مع الصدق والأمانة . فإذا دخلتها الخيانة ونوى أحدهما أو كلاهما خيانة الآخر ، وإخفاء ما يتمكن منه : خرج الله من بينهما . وذهبت البركة . ولم تتيسر الأسباب . والتجربة والمشاهدة تشهد لهذا الحديث . والله أعلم .

الحديث الرابع والأربعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

رواه مسلم .

دار الدنيا جعلها الله دار عمل ، يتزود منها العباد من الخير ، أو الشر ، للدار الأخرى ، وهي دار الجزاء . وسيندم المفرطون إذا انتقلوا من هذه الدار ، ولم يتزودوا منها لآخرتهم مايسعدهم ، وحينئذ لا يمكن الاستدراك . ولا يتمكن العبد أن يزيد حسناته مثقال ذرة ، ولا يمحو من سيئاته كذلك . وانقطع عمل العبد عنه إلا هذه الأعمال الثلاثة التي هي من آثار عمله .

الأول : الصدقة الجارية ، أي : المستمر نفعها . وذلك كالوقف للعقارات التي ينتفع بغلها ، أو الأواني التي ينتفع باستعمالها ، أو الحيوانات التي ينتفع بركوبها ومنافعها ، أو الكتب والمصاحف التي ينتفع باستعمالها والانتفاع بها ، أو المساجد والمدارس والبيوت وغيرها التي ينتفع بها .

فكلها أجرها جار على العبد ما دام ينتفع بشيء منها . وهذا من أعظم فضائل الوقف . وخصوصاً الأوقاف التي فيها الإعانة على الأمور الدينية ، كالعلم والجهاد ، والتفرغ للعبادة ، ونحو ذلك .

ولهذا اشترط العلماء فى الوقف : أن يكون مصرفه على وجهة بر وقربة .

الثانى : العلم الذى ينتفع به من بعده ، كالعلم الذى علمه الطلبة المستعدين للعلم ، والعلم الذى نشره بين الناس ، والكتب التى صنفها فى أصناف العلوم النافعة .

وهكذا كل ما تسلسل الانتفاع بتعليمه مباشرة ، أو كتابة ، فإن أجره جار عليه . فكم من علماء هداة ماتوا من مئات من السنين ، وكتبهم مستعملة ، وتلاميذهم قد تسلسل خيرهم . وذلك فضل الله .

الثالث : الولد الصالح ـ ولد صلب ، أو ولد ابن ، أو بنت ، ذكر أو أنثى ـ ينتفع والده بصلاحه ودعائه . فهو فى كل وقت يدعو لوالديه بالمغفرة والرحمة ، ورفع الدرجات ، وحصول المثوبات .

وهذه المذكورة فى هذا الحديث هى مضمون قوله تعالى : (٣٦ : ١٢ إنا نحن نحى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم) .

فما قدموا : هو ما باشروه من الأعمال الحسنة أو السيئة .

وآثارهم : ما ترتب على أعمالهم ، مما عمله غيرهم ، أو انتفع به غيرهم وجميع ما يصل إلى العبد من آثار عمله ثلاثة :

الأول : أمور عمل بها الغير بسببه و بدعايته وتوجيهه .

الثانى : أمور انتفع بها الغير أىّ نفع كان ، على حسب ذلك النفع باقتدائه به فى الخير .

الثالث : أمور عملها الغير وأهداها إليه ، أو صدقة تصدق بها عنه أو دعا له ، سواء أ كان من أولاده الحسيين أو من أولاده الروحيين الذين تخرجوا بتعليمه ، وهدايته وإرشاده ، أو من أقاربه وأصحابه المحبين ، أو من عموم المسلمين ، بحسب مقاماته فى الدين ، وبحسب ما أوصل إلى العباد من الخير ، أو تسبب به . وبحسب ما جعل الله له فى قلوب العباد من الود الذى لابد أن تترتب عليه آثاره الكثيرة التى منها : دعاؤهم ، واستغفارهم له .

وكلها تدخل فى هذا الحديث الشريف .

وقد يجتمع للعبد فى شىء واحد عدة منافع . كالولد الصالح العالم الذى سعى أبوه فى تعليمه ، وكالكتب التى يقفها أو يهبها لمن ينتفع بها .

ويستدل بهذا الحديث على الترغيب فى التزوج الذى من ثمراته حصول الأولاد الصالحين ، وغيرها من المصالح ، كصلاح الزوجة وتعليمها ما تنتفع به ، وتنفع غيرها . والله أعلم .

الحديث الخامس والأربعون

عن أسمر بن مضرس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سبق إلى مالم يسبق إليه مسلم فهو له » .

رواه أبو داود .

يدخل فى هذا الحديث : السبق إلى جميع المباحات التى ليست ملكا لأحد ، ولا باختصاص أحد .

فيدخل فيه : السبق إلي إحياء الأرض الموات . فمن سبق إليها باستخراج ماء ، أو إجرائه عليها ، أو بيناء : مَلَكها . ولا يملكها بدون الإحياء .

لكن لو أقطعه الإمام أو نائبه ، أو تحجر مواتاً من دون إحيائه : فهو أحق به ، ولا يملكه . فإن وجد منشوف للإحياء قيل له : إما أن تعمرها ، وإما أن ترفع يدك عنها .

ويدخل فى ذلك :

السبق إلى صيد البر ، والبحر ، وإلى المعادن غير الظاهرة ، وغير الجارية .

والسبق إلى أخذ حطب أو حشيش أو منبوذ رغبة عنه .

والسبق إلي الجلوس فى المساجد والمدارس والأسواق والرُّبُط إن لم يتوقف ذلك على ناظر جعل له الترتيب والتعيين ، فيرجع فيه إلى نص الواقفين والموصين .

فمن سبق إلى شيء من المباحات التي لا مالك لها : فهو أحق بها . والملك فيها مقصور على القدر المأخوذ .

وكذلك من سبق إلى الأعمال في الجعالات التي يقول فيها صاحبها : من عمل لي هذا العمل فله كذا : فهو المستحق للتقديم والجعل

وكذلك من سبق إلى التقاط اللقطة واللقيط ، وغيرها : فكله داخل في هذا الحديث . والله أعلم .

الحديث السادس والأربعون

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألحقوا الفرائض بأهلها . فما بقى فهو لأولى رجل ذكر » . متفق عليه .

الحديث السابع والأربعون

عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقَّه ، فلا وصية لوارث » .

رواه أبو داود والترمذى وابن ماجة .

هذان الحديثان اشتملا على جل أحكام المواريث ، وأحكام الوصايا فإن الله تعالى فصَّل أحكام المواريث تفصيلا تاماً واضحاً ، وأعطى كل ذى حق حقه . وأمر صلى الله عليه وسلم أن يلحق الفرائض بأهلها ، فيقدمون على العصبات . فما بقى فهو لأولى رجل ذكر . وهم العصبة من الفروع الذكور ، والأصول الذكور ، وفروع الأصول الذكور ، والولاء .

فيقدم من هذه الجهات إذا اجتمع عاصبان فأكثر : الأقرب جهة . فإن كانوا فى جهة واحدة : قدم الأقرب منزلة . فيقدم الابن على ابن الابن ، والعم مثلا على ابن العم . فإن كانوا فى منزلة واحدة ، وتميز أحدهم بقوة القرابة ولا يتصور ذلك إلا فى فروع الأصول ، كالإخوة والأعمام

مطلقا وبنيهم : قدم الأقوى — وهو الشقيق — على الذى لأب .

وهذا هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : «لأولى رجل ذكر» أى : أقربهم جهة ، أو منزلة ، أو قوة ، على حسب هذا الترتيب .

وعلم من هذا : أن صاحب الفرض مقدم على العاصب فى البداءة ، وأنه إن استغرقت الفروض التركة سقط العاصب فى جميع مسائل الفرائض ، حتى فى الحمارية ، وهى ما إذا خلفت زوجا ، وأما ، وإخوة لأم وإخوة أشقاء : فللزوج النصف ، وللأم السدس ؛ وللإخوة لأم الثلث .

فهؤلاء أهل فروض ألحقنا بهم فروضهم ، وسقط الأشقاء ؛ لأنهم عصبات . وهذا هو الصحيح لأدلة كثيرة . هذا أوضحها .

ويستدل بقوله صلى الله عليه وسلم : «ألحقوا الفرائض بأهلها» على أن الفروض إذا كثرت وتزاحمت ولم يحجب بعضهم بعضا ، فإنه يعول لهم ، وتنقص فروضهم بحسب ماعالت به كالديون إذا أدلت على موجودات الغريم التى لا تكفى لدينهم ؛ فإنهم يعطون بقدر ديونهم . وهذا من العدل .

فكل مشتركين فى استحقاق شىء لا يمكن أن يكمل لكل واحد منهم ، وليس لواحد منهم مزية تقديم : فإنهم ينقصون على قدر استحقاقهم وذلك فى الهبات والوصايا والأوقاف وغيرها ، كما أن الزائد لهم بقدر أملاكهم واستحقاقهم .

ويدل الحديث أنه إذا لم يوجد صاحب فرض: فالمال كله للعصبات على حسب الترتيب السابق .

وكذلك يدل على أنه إذا لم يوجد إلا أصحاب الفروض، ولم يوجد عاصب : فإنه يرد عليهم على قدر فروضهم، كما تعال عليهم ؛ لأن من حكمة فرض الفروض وتقديرها : أن تبقى البقية للعاصب . فإذا لم يوجد رُدَّ على المستحقين لعدم المزاحم .

ويدل الحديث على صحة الوصية لغير الوارث . ولكن فى ذلك تفصيل : إن كان الموصى غنياً ويدع ورثته أغنياء : استحبت . وإن كان فقيرا وورثته يحتاجون جميع ميراثه ، لفقرهم أو كثرتهم: فالأولى له أن لا يوصى ، بل يدع ماله لورثته .

وأما الوصية للوارث : فالحديث دل على منعها . وعلل ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه ، فلا وصية لوارث » .

فمن أوصى لوارث فقد تعدى حدود الله ، وفضل بعض الورثة على بعض . وسواء وقع ذلك على وجه الوصية أو الهبة للوارث ، كما هو اتفاق العلماء ، أو على وجه الوقف لثلثه على بعض ورثته .

وشذ بعضهم فى هذه المسألة ، فأجازها . وهو منافٍ للفظ الحديث ومعناه .

وأما الوصية للأجنبى ، أو للجهات الدينية : فتجوز بالثلث فأقل . وما زاد على الثلث : يتوقف على إجازة الورثة .

الحديث الثامن والأربعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثةٌ حقٌّ على الله عَوْنُهم : المُكاتب يريد الأداء ، والمتزوج يريد العفاف ، والمجاهد ، في سبيل الله » رواه أهل السنن إلا النسائي .

وذلك : أن الله تعالى وعد المنفقين بالخلف العاجل وأطلق النفقة . وهي تنصرف إلى النفقات التي يحبها الله ؛ لأن وعده بالخلف من باب الثواب الذي لا يكون إلا على ما يحبه الله .

وأما النفقات في الأمور التي لا يحبها الله : إما في المعاصي ، وإما في الإسراف في المباحات : فالله لم يضمن الخلف لأهلها ، بل لا تكون إلا مغرما .

وهذه الثلاثة المذكورة في هذا الحديث من أفضل الأمور التي يحبها الله .

فالجهاد في سبيل الله هو سنام الدين وذروته وأعلاه . وسواء كان جهاداً بالسلاح ، أو جهاداً بالعلم والحجة . فالنفقة في هذا السبيل مخلوفة وسالكُ هذا السبيل مُعَانٌ من الله ، مُيَسَّرٌ له أمرُه .

وأما المكاتب : فالكتابة قد أمر الله بها في قوله تعالى : (٢٤ : ٣٣ فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً) أي : صلاحا في تقويم دينهم ودنياهم . فالسيد مأمور بذلك . والعبد المكاتب الذي يريد الأداء ، ويتحجل

الحرية والتفرغ لدينه ودنياه يعينه الله، وييسر له أموره، ويرزقه من حيث لا يحتسب.

وعلى السيد: أن يرفق بمكاتبه فى تقدير الآجال التى تحل فيها نُجُوم الكتابة، ويعطيه من مال الكتابة إذا أدّاها ربعها.

وفى قوله تعالى فى حق المكاتبين: (٢٤ : ٣٣ وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) أمر للسيد ولغيره من المسلمين. ولذلك جعل الله له نصيباً من الزكاة فى قوله: (٩ : ٦٠ وفى الرقاب) وهذا من عونه تعالى.

وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم ما هو أعم من هذا، فقال: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّاها الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله» رواه البخارى.

وأما النكاح: فقد أمر الله به ورسوله. ورتب عليه من الفوائد شيئاً كثيراً: عون الله، وامتثال أمر الله ورسوله، وأنه من سنن المرسلين.

وفيه: تحصين الفرج، وغض البصر، وتحصيل النسل، والإنفاق على الزوجة والأولاد؛ فإن العبد إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له أجراً، وحسنات عند الله، سواء كانت مأكولا أو مشروبا أو ملبوساً أو مستعملا فى الحوائج كلها. كله خير للعبد، وحسنات جارية وهو أفضل من نوافل العبادات القاصرة.

وفيه : التذكر لنعم الله على العبد ، والتفرغ لعبادته ، وتعاون الزوجين على مصالح دينهما ودنياهما ، وقد قال تعالى : (٤ : ٣ فانكحوا ما طاب لكم من النساء) وقال صلى الله عليه وسلم : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، وجمالها ، وحسبها ، ودينها : فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يمينك » لما فيها من صلاح الأحوال والبيت والأولاد ، وسكون قلب الزوج وطمأنينته ، فإن حصل مع الدين غيره فذاك ، وإلا فالدين أعظم الصفات المقصودة ، قال تعالى : (٤ : ٣٤ فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله)

وعلى الزوجة : القيام بحق الله ، وحق بعلها ، وتقديم حق البعل على حقوق الخلق كلهم .

وعلى الزوج : السعى فى إصلاح زوجته ، وفعل جميع الأسباب التى تتم بها الملاءمة بينهما ، فإن الملاءمة هى المقصود الأعظم . ولهذا ندب النبى صلى الله عليه وسلم إلى النظر إلى المرأة التي يريد خطبتها ؛ ليكون على بصيرة من أمره والله أعلم .

الحديث التاسع والأربعون

عن عائشة رضى الله عنهـا قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يحرُم من الرّضاعة مايحرم من الولادة » متفق عليه .

وذلك : أن المحرمات من النسب بنص القرآن والإجماع : الأُمهات وإن عَلوْن من كل جهة ، والبنات، وإن نزلن من كل جهة ، والأخوات مطلقاً ، وبنات الإخوة ، وبنات الأخوات ، وإن نزلن ، والعمات ، والخالات .

فجميع القرابات حرام ، إلا بنات الأعمام ، وبنات العمات ، وبنات الأخوال ، وبنات الخالات .

وهذه السبع محرمات فى الرضاع من جهة المرضعة ، وصاحب اللبن، إذا كان الرضاع خمس رضعات فأكثر ، فى الحولين .

وأما من جهة أقارب الراضع : فإن التحريم يختص بذرية الراضع. وأما أبوه من النسب وأمه وأُصولهم وفروعهم : فلا تعلق لهم بالتحريم

وكذلك يحرم الجمع بين الأُختين ، وبين المرأة وعمتها ، أو خالتها فى النسب . ومثل ذلك فى الرضاع .

وكذلك تحرم أُمهات الزوجة ، وإن علون ، وبناتها ، وإن نزلن ، إذا كان قد دخل بزوجته ، وزوجات الآباء، وإن علوا ، وزوجات الأبناء وإن نزلوا من كل جهة ، ومثل ذلك فى الرضاع .

ومسائل تحريم الجمع والصهر فى الرضاع فيه خلاف . ولكن مذهب جمهور العلماء والأئمة الأربعة : تحريم ذلك للعمومات .

الحديث الخمسون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يَفْرِكْ مؤمنٌ مؤمنةً ؛ إن كره منها خُلقاً رضي منها آخر » رواه مسلم .

هذا الإرشـاد من النبي صلى الله عليه وسلم ، للزوج في معاشرة زوجته من أكبر الأسبـاب والدواعي إلى حسن العشرة بالمعروف ، فنهى المؤمن عن سوء عشرته لزوجته . والنهي عن الشيء أمر بضده. وأمره أن يلحظ ما فيهـا من الأخلاق الجميلة ، والأمور التي تناسبه ، وأن يجعلهـا في مقابلة ما كره من أخلاقها ؛ فإن الزوج إذا تأمل ما في زوجته من الأخلاق الجميلة ، والمحاسن التي يحبها ، ونظر إلى السبب الذي دعاه إلى التضجر منها وسوء عشرتها ، رآه شيئاً واحداً أو اثنين مثلا ، وما فيها مما يحب أكثر . فإذا كان منصفاً غض عن مساوئها لاضمحلالها في محاسنها .

وبهذا : تدوم الصحبة ، وتؤدّى الحقوق الواجبـة والمستحبة . وربما أن ما كره منها تسعى بتعديله أو تبديله .

وأما من غض عن المحاسن ، ولحظ المساوىء ولو كانت قليلة . فهذا من عدم الإنصاف . ولا يكاد يصفو مع زوجته .

والناس في هذا ثلاثة أقسام .

أعلام : مَن لحظ الأخلاق الجميلة والمحاسن ، وغض عن المساوئ بالكلية وتناساها .

وأقلهم توفيقاً وإيماناً وأخلاقاً جميلة : مَن عكس القضية ، فأهدر المحاسن مهما كانت ، وجعل المساوىء نصب عينيه . وربما مددها وبسطها وفسرها بظنون وتأويلات تجعل القليل كثيراً ، كما هو الواقع .

والقسم الثالث: مَن لحظ الأمرين ، ووازن بينهما ، وعامل الزوجة بمقتضى كل واحد منها . وهذا منصف . ولكنه قد حرم الكمال .

وهذا الأدب الذى أرشد إليه صلى الله عليه وسلم ، ينبغى سلوكه واستعماله مع جميع المعاشرين والمعاملين ؛ فإن نفعه الدينى والدنيوى كثير وصاحبه قد سعى فى راحة قلبه . وفى السبب الذى يدرك به القيام بالحقوق الواجبة والمستحبة ؛ لأن الكمال فى الناس متعذر . وحسب الفاضل أن تعد معايبه . وتوطين النفس على ما يجىء من المعاشرين مما يخالف رغبة الإنسان يسهل عليه حسن الخلق ، وفعل المعروف والإحسان مع الناس . والله الموفق .

الحديث الحادى والخمسون

عن عبد الرحمن بن سمرة رضى الله عنه قال : قال لى رسـول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الرحمن بن سمرة ، لا تسـأل الإمارة ، فإنك إن أُوتيتها عن مسألة وُكِلت إليها ، وإن أُوتيتها عن غير مسألة أُعِنْتَ عليها . وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها ، فائْتِ الذى هو خير ، وكفِّر عن يمينك » متفق عليه .

هذا الحديث احتوى على جملتين عظيمتين :

إحداهما : أن الإمارة وغيرها من الولايات على الخلق ، لا ينبغى للعبد أن يسألها ، ويتعرض لها . بل يسأل الله العافية والسلامة ، فإنه لايدرى : هل تكون الولاية خيراً له أو شرًّا ؟ ولايدرى : هل يستطيع القيام بها ، أم لا ؟

فإذا سألها وحرص عليها ، وُكلَ إلى نفسـه . ومتى وُكل العبد إلى نفسه لم يوفق ، ولم يسدد فى أُموره ، ولم يُعَن عليها ؛ لأن سؤالها ينبئ عن محذورين .

الأول : الحرص على الدنيا والرئاسة ، والحرص يحمل على الريبة فى التخوض فى مال الله ، والعلو على عباد الله .

الثانى : فيه نوع اتكال على النفس ، وانقطاع عن الاستعانة بالله . ولهذا قال : « وكلت إليها » .

وأما من لم يحرص عليها ولم يتشوف لها ، بل أتته من غير مسألة

ورأى من نفسه عدم قدرته عليها : فإن الله يعينه عليها ، ولا يكله إلى نفسه ؛ لأنه لم يتعرض للبلاء ، ومن جاءه البلاء بغير اختياره حمل عنه ، ووفق للقيام بوظيفته . وفى هذه الحال يقوى توكله على الله تعالى ، ومتى قام العبد بالسبب متوكلا على الله نجح .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم : «أعنت عليها» دليل على أن الإمارة وغيرها من الولايات الدنيوية جامعة للأمرين : للدين ، وللدنيا ؛ فإن المقصود من الولايات كلها : إصلاح دين الناس ودنياهم .

ولهذا : يتعلق بها الأمر والنهى، والإلزام بالواجبات ، والردع عن المحرمات ، والإلزام بأداء الحقوق . وكذلك أمور السياسة والجهاد ، فهى لمن أخلص فيها لله وقام بالواجب من أفضل العبادات ، ولمن لم يكن كذلك من أعظم الأخطار .

ولهذا كانت من فروض الكفايات ؛ لتوقف كثير من الواجبات عليها .

فإن قيل : كيف طلب يوسف صلى الله عليه وسلم وِلايةَ الخزائن المالية فى قوله : (١٢ : ٥٥ اجعلنى على خزائن الأرض) ؟ .

قيل : الجواب عنه قوله تعالى : (إنى حفيظ عليم) فهو إنما طلبها لهذه المصلحة التى لا يقوم بها غيره : من الحفظ الكامل ، والعلم بجميع الجهات المتعلقة بهذه الخزائن . من حسن الاستخراج ، وحسن التصريف ، وإقامة العدل الكامل . فهو لما رأى الملك استخلصه لنفسه

وجعله مقدما عليه ، وفى المحل الثانى وجب عليه أيضاً النصيحة التامة ، للملك والرعية . وهى متعينة فى ولايته .

ولهذا : لما تولى خزائن الأرض سعي فى تقوية الزراعة جداً . فلم يبق موضع فى الديار المصرية من أقصاها إلي أقصاها يصلح للزراعة إلا زرع فى مدة سبع سنين . ثم حصنه وحفظه ذلك الحفظ العجيب . ثم لما جاءت السنون الجدب ، واضطر الناس إلى الأرزاق سعى فى الكيل للناس بالعدل ، فمنع التجار من شراء الطعام خوف التضييق على المحتاجين ، وحصل بذلك من المصالح والمنافع شيء لا يعد ولا يحصى ، كما هو معروف .

الجملة الثانية : قوله صلى الله عليه وسلم : « وإذا حلفت على يمين ، فرأيت غيرها خيراً منها فائت الذى هو خير ، وكفر عن يمينك » .

يشمل من حلف على ترك واجب ، أو ترك مسنون ؛ فإنه يكفر عن يمينه ، ويفعل ذلك الواجب والمسنون الذى حلف على تركه ويشمل من حلف على فعل محرم ، أو فعل مكروه فإنه يؤمر بترك ذلك المحرم والمكروه ، ويكفر عن يمينه .

فالأقسام الأربعة داخلة فى قوله صلى الله عليه وسلم : « فائت الذى هو خير » لأن فعل المأمور مطلقاً ، وترك المنهى مطلقا : من الخير .

وهذا هو معنى قوله تعالى : (٢: ٢٢٤ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم

أن تَبَرّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس) أى : لا تجعلوا اليمين عذراً لكم وعرضة ومانعاً لكم من فعل البر والتقوى ، والصلح بين الناس إذا حلفتم على ترك هذه الأمور ، بل كفروا أيمانكم ، وافعلوا البر والتقوى ، والصلح بين الناس .

ويؤخذ من هذا الحديث : أن حفظ اليمين فى غير هذه الأمور أولى ، لكن إن كانت اليمين على فعل مأمور ، أو ترك منهى : لم يكن له أن يحنث . وإن كانت فى المباح : خير بين الأمرين ، وحفظها أولى .

واعلم أن الكفَّارة لا تجب إلا فى اليمين المنعقدة على مستقبل إذا حلف وحنث . وهى على التخيير بين العتق ، أو إطعام عشرة مساكين ، أو كسوتهم . فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام .

وأما اليمين على الأمور الماضية أو لغو اليمين ، كقول الإنسان : لا والله ، وبلى والله فى عرض حديثه : ولا كفاره فيها . والله أعلم .

الحديث الثانى والخمسون

عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعص الله فلا يعصه » . رواه البخاري .

النذر إلزام العبد نفسه طاعة لله: إما بدون سبب ، كقوله : لله عليَّ أو نذرت عتق رقبة ، أو صيام كذا وكذا ، أو الصدقة بكذا وكذا . وإما بسبب ، كأن يعلق ذلك على قدوم غائبه ، أو بُرْء مريض ، أو حصول محبوب ، أو زوال مكروه : فمتى تم له مطلوبه وجب عليه الوفاء .

وهذا الحديث شامل للطاعات كلها . فمن نذر طاعة واجبة ومستحبة وجب عليه الوفاء بالنذر، وليس عنه كفارة . بل يتعين الوفاء ، كما أمره النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث . وكما أثنى الله على الموفين بنذرهم فى قوله : (٧٦ : ٧ يوفون بالنذر) مع أن عقد النذر مكروه ، كما نهى صلى الله عليه وسلم عن النذر . وقال : « إنه لا يأتى بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل » .

وأما نذر المعصية : فيتعين على العبد أن يترك معصية الله ولو نذرها .

وبقية أقسام النذر ، كنذر المعصية ، والنذر المباح ، ونذر اللجاج ، والغضب : حكمها حكم اليمين فى الحنث ، فيها كفارة يمين لمشاركتها فى المعنى لليمين . والله أعلم

الحديث الثالث والخمسون

عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم . ويرد عليهم أقصاهم . وهم يَدٌ على مَن سواهم . ألا ، لا يقتل مسلم بكافر ، ولا ذو عَهْد فى عهده »

رواه أبو داود والنسائى . ورواه ابن ماجة عن ابن عباس .

هذا الحديث كالتفصيل لقوله تعالى : (٤٩ : ١٠ إنما المؤمنون إخوة) وقوله صلى الله عليه وسلم : « وكونوا عباد الله إخوانا » .

فعلى المؤمنين : أن يكونوا متحابين ، متصافين غير متباغضين ولا متعادين . يسعون جميعاً لمصالحهم الكلية التى بها قوام دينهم ودنياهم ، لا يتكبر شريف على وضيع ، ولا يحتقر أحد منهم أحدا . فدماؤهم تتكافأ ؛ فإنه لا يشترط فى القصاص إلا المكافأة فى الدين . فلا يقتل المسلم بالكافر ، كما فى هذا الحديث ، والمكافأة فى الحرية ، فلا يقتل الحر بالعبد .

وأما بقية الأوصاف : فالمسلمون كلهم على حد سواء . فمن قتل أو قطع طرفا متعمداً عدوانا ، فلهم أن يقتصوا منه بشرط المماثلة فى العضو ، لا فرق بين الصغير بالكبير ، وبالعكس ، والذكر بالأنثى وبالعكس ، والعالم بالجاهل ، والشريف بالوضيع ، والكامل بالناقص كالعكس في هذه الأمور .

قوله صلى الله عليه وسلم : « ويسعى بذمتهم أدناهم » يعنى : أن ذمة

المسلمين واحدة . فمتى استجار الكافر بأحد من المسلمين وجب على بقيتهم تأمينه ، كما قال تعالى : (٩ : ٦ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أَبْلِغْهُ مَأمنه) فلا فرق فى هذا بين إجارة الشريف الرئيس ، و بين آحاد الناس .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ويرد عليهم أقصاهم » أى: فى التأمين . وكذلك اشتراك الجيوش مع سراياه التى تذهب فتُغِير أو تحرس ، فمتى غنم الجيش ، أو غنم أحد السرايا التابعة للجيش: اشترك الجميع فى المغنم . ولا يختص بها المباشر ؛ لأنهم كلهم متعاونون على مهمتهم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « وهم يَدٌ على من سواهم » أى : يجب على جميع المسلمين فى جميع أنحاء الأرض أن يكونوا يدًا على أعدائهم من الكفار ، بالقول والفعل ، والمساعدات والمعاونة فى الأمور الحربية ، والأمور الاقتصادية ، والمدافعة بكل وسيلة .

فعلى المسلمين : أن يقوموا بهذه الواجبات بحسب استطاعتهم ؛ لينصرهم الله ويعزهم ، ويدفع عنهم بالقيام بواجبات الإيمان عدوان الأعداء . فنسأله تعالى أن يوفقهم لذلك .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « ولا ذو عهد فى عهده » أى : لا يحل قتل من له عهد من الكفار بذمة أو أمان أو هدنة ؛ فإنه لما قال : « لا يقتل مسلم بكافر » احترز بذلك البيان عن تحريم قتل المعاهد ؛ لئلا يظن الظان جوازه . والله أعلم .

الحديث الرابع والخمسون

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من تطبَّب ولم يُعلم منه طِبٌّ، فهو ضامن ».

رواه أبو داود والنسائي .

هذا الحديث يدل بلفظه وفحواه على : أنه لا يحل لأحد أن يتعاطى صناعة من الصناعات وهو لا يحسنها ، سواء كان طبا أو غيره ، وأن من تجرأ على ذلك : فهو آثم . وما ترتب على عمله من تلف نفس أو عضو أو نحوهما : فهو ضامن له . وما أخذه من المال فى مقابلة تلك الصناعة التى لا يحسنها : فهو مردود على باذله ؛ لأنه لم يبذله إلا بتغريره وإيهامه أنه يحسن ، وهو لا يحسن ، فيدخل فى الغش . و« من غشنا فليس منا »

ومثل هذا البنَّاء والنجار والحداد والخراز والنساج ونحوهم ممن نصَب نفسه لذلك ، موهما أنه يحسن الصنعة ، وهو كاذب .

ومفهوم الحديث : أن الطبيب الحاذق ونحوه إذا باشر ولم تجن يده وترتب على ذلك تلف : فليس بضامن ؛ لأنه مأذون فيه : من المكلف أو وليه . فكل ما ترتب على المأذون فيه فهو غير مضمون ، وما ترتب على غير ذلك المأذون فيه : فإنه مضمون .

ويستدل بهذا على : أن صناعة الطب من العلوم النافعة المطلوبة شرعاً وعقلا . والله أعلم .

الحديث الخامس والخمسون

عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ادرأوا الحدودَ عن المسلمين ما استطعتم ، فإن كان له مخرج ، فخلوا سبيله . فإن الإمام أن يخطىء فى العفو ، خير من أن يخطىء فى العقوبة » .

رواه الترمذى مرفوعاً وموقوفاً .

هذا الحديث : يدل على أن الحدود تدرأ بالشبهات . فإذا اشتبه أمر الإنسان وأشكل علينا حاله ، ووقعت الاحتمالات : هل فعل موجب الحد أم لا ؟ وهل هو عالم أو جاهل ؟ وهل هو متأول معتقد حله أم لا ؟ وهل له عذر عقد أو اعتقاد ؟ : درئت عنه العقوبة ؛ لأننا لم نتحقق موجبها يقيناً .

ولو تردد الأمر بين الأمرين ، فالخطأ فى درء العقوبة عن فاعل سببها ، أهون من الخطأ فى إيقاع العقوبة على من لم يفعل سببها ، فإن رحمة الله سبقت غضبه ، وشريعته مبنية على اليسر والسهولة .

والأصل فى دماء المعصومين وأبدانهم وأموالهم التحريم ، حتى نتحقق ما يبيح لنا شىء من هذا .

وقد ذكر العلماء على هذا الأصل فى أبواب الحدود أمثلة كثيرة، وأكثرها موافق لهذا الحديث .

ومنها : أمثلة فيها نظر . فإن الإحتمال الذى يشبه الوهم والخيال ، لا عبرة به . والميزان لفظ هذا الحديث . فإن وجدتم له ، أو فإن كان له مخرج : فخلوا سبيله

وفى هذا الحديث : دليل على أصل . وهو : أنه إذا تعارض مفسدتان تحقيقاً أو احتمالاً : راعينا المفسدة الكبرى ، فدفعناها تخفيفاً للشر . والله أعلم .

الحديث السادس والخمسون

عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا طاعة فى معصية . إنما الطاعة فى المعروف » .

متفق عليه .

هذا الحديث : قيد فى كل من تجب طاعته من الولاة ، والوالدين، والزوج ، وغيرهم . فإن الشارع أمر بطاعة هؤلاء .

وكل منهم طاعته فيما يناسب حاله وكلها بالمعروف . فإن الشارع رد الناس فى كثير مما أمرهم به إلى العرف والعادة ، كالبر والصلة ، والعدل والإحسان العام . فكذلك طاعة من تجب طاعته .

وكلها تقيد بهذا القيد ، وأن من أمر منهم بمعصية الله بفعل محرم ، أو ترك واجب : فلا طاعة لمخلوق فى معصية الله ، فإذا أمر أحدهم بقتل معصوم ، أو ضربه ، أو أخذ ماله ، أو بترك حج واجب ، أو عبادة واجبة ، أو بقطيعة من تجب صلته : فلا طاعة لهم ، وتقدم طاعة الله على طاعة الخلق .

ويفهم من هذا الحديث أنه إذا تعارضت طاعة هؤلاء الواجبة ، ونافلة من النوافل ، فإن طاعتهم تقدم ؛ لأن ترك النفل ليس بمعصية ، فإذا نهى زوجته عن صيام النفل ، أو حج النفل ، أو أمر الوالى بأمر من أمور السياسة يستلزم ترك مستحب : وجب تقديم الواجب .

وقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الطاعة فى المعروف » كما أنه يتناول ما ذكرنا ، فإنه يتناول أيضاً تعليق ذلك بالقدرة والاستطاعة ، كما تعلق الواجبات بأصل الشرع .

وفى الحديث « عليكم السمع والطاعة فيما استطعتم » .

والله أعلم .

الحديث السابع والخمسون

عن عبد الله بن عمرو ، وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا حكم الحاكم ، فاجتهد وأصاب : فله أجران . وإذا حكم ، فاجتهد فأخطأ : فله أجر واحد » .

متفق عليه .

المراد بالحاكم : هو الذي عنده من العلم ما يؤهله للقضاء . وقد ذكر أهل العلم شروط القاضي . فبعضهم بالغ فيها ، وبعضهم اقتصر على العلم الذي يصلح به للفتوى . وهو الأولى .

ففي هذا الحديث : أن الجاهل لو حكم وأصاب الحكم : فإنه ظالم آثم ؛ لأنه لا يحل له الإقدام على الحكم ، وهو جاهل .

ودل على : أنه لا بد للحاكم من الاجتهاد . وهو نوعان :

اجتهاد في إدخال القضية التي وقع فيها التحاكم بالأحكام الشرعية .

واجتهاد في تنفيذ ذلك الحق على القريب والصديق وضدهما ، بحيث يكون الناس عنده في هذا الباب واحداً ، لا يفضل أحداً على أحد ، ولا يميله الهوى ، فتى كان كذلك فهو مأجور على كل حال : إن أصاب فله أجران . وإن أخطأ فله أجر واحد ، وخطؤه معفو عنه ، لأنه بغير استطاعته . والعدل كغيره معلق بالاستطاعة .

والفرق بين الحاكم المجتهد ، وبين صاحب الهوى : أن صاحب الحق قد فعل ما أمر به من حسن القصد والاجتهاد . وهو مأمور في

الظاهر باعتقاد ما قام عنده عليه دليله ، بخلاف صاحب الهوى ، فإنه يتكلم بغير علم ، وبغير قصد للحق . قاله شيخ الإسلام .

وفي هذا : فضيلة الحاكم الذى على هذا الوصف ، وأنه يغنم الأجر والثواب فى كل قضية يحكم بها .

ولهذا : كان القضاء من أعظم فروض الكفايات ؛ لأن الحقوق بين الخلق كلها مضطرة للقاضى عند التنازع أو الاشتباه .

وعليه : أن يجاهد نفسه على تحقيق هذا الاجتهاد الذى تبرأ به ذمته ، وينال به الخير ، والأجر العظيم . والله أعلم .

الحديث الثامن والخمسون

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو يُعطى الناسُ بدَعْواهم لادّعى رجالٌ دماء قوم وأموالَهم . ولكن اليمين على المدعى عليه »

رواه مسلم .

وفى لفظ عند البيهقى : « البينة على المدعى ، واليمين على من أنكر »

هذا الحديث عظيم القدر . وهو أصل كبير من أصول القضايا والأحكام ؛ فإن القضاء بين الناس إنما يكون عند التنازع : هذا يدّعى على هذا حقاً من الحقوق ، فينكره ، وهذا يدعى براءته من الحق الذى كان ثابتاً عليه .

فبين صلى الله عليه وسلم أصلا يفض نزاعهم ، ويتضح به المحق من المبطل .

فمن ادعى عيناً من الأعيان ، أو ديناً ، أوحقاً من الحقوق وتوابعها على غيره ، وأنكره ذلك الغير : فالأصل مع المنكر .

فهذا المدعى إن أتى ببينة تثبت ذلك الحق ، ثبت له ، وحُكم له به وإن لم يأت ببينة : فليس له على الآخر إلا اليمين .

وكذلك من ادعى براءته من الحق الذى عليه ، وأنكر صاحب الحق ذلك ، وقال إنه باق فى ذمته ، فإن لم يأت مدعى الوفاء والبراءة

بينة ، وإلا حكم ببقاء الحق فى ذمته ؛ لأنه الأصل . ولكن على صاحب الحق اليمين ببقائه .

وكذلك دعوى العيوب ، والشروط ، والآجال ، والوثائق : كلها من هذا الباب .

فعلم أن هذا الحديث تضطر إليه القضاة فى مسائل القضاء كلها ؛ لأن البينة اسم للمبين الحق . وهى تتفاوت بتفاوت الحقوق . وقد فصلها أهل العلم رحمهم الله .

وقد بين صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث الحكم ، وبين الحكمة فى هذه الشريعة الكلية ، وأنها عين صلاح العباد فى دينهم ودنياهم ، وأنه لو يعطى الناس بدعواهم لكثر الشر والفساد ، ولادّعى رجال دماء قوم وأموالهم .

فعلم أن شريعة الإسلام بها صلاح البشر . وإذا أردت أن تعرف ذلك ، فقابل بين كل شريعة من شرائعه الكلية وبين ضدها : تجدْ الفرق العظيم ، وتشهد أن الذى شرعها حكيم عليم ، رحيم بالعباد ؛ لاشتمالها على الحكمة والعدل ، والرحمة ، ونصر المظلوم ، وردع الظالم .

وقد قال بعض المحققين : إن الشريعة جعلت اليمين فى أقوى جنبتى المدعين . ومن تدبر ذلك عرفه . والله أعلم

الحديث التاسع والخمسون

عن عائشة رضى الله عنها ـ مرفوعا ـ « لا تجوز شهادة خائن ولا خائنة ، ولا مجلود حدًّا ، ولا ذى غمر على أخيه ، ولا ظنين فى ولاء ولا قرابة ، ولا القانع من أهل البيت » .

رواه الترمذى .

هذا حديث مشتمل على الأمور القادحة فى الشهادة .

وذلك : أن الله أمر بإشهاد العدول المرضيين .

وأهل العلم اشترطوا فى الشاهد فى الحقوق بين الناس : أن يكون عدلا ظاهراً . وذكروا صفات العدالة .

وحَدَّها بعضهم بحد مأخوذ من قوله تعالى : (٢ : ٢٨٢ ممن ترضون من الشهداء) فقال : كل مرضى عند الناس يطمئنون لقوله وشهادته . فهو مقبول . وهذا أحسن الحدود . ولا يسع الناس العمل بغيره .

والأشياء التى تقدح فى الشهادة ترجع إلى التهمة أو إلى مظنتها

فمن الناس مَن لا تقبل شهادته مطلقا على جميع الأمور التى تعتبر فيها الشهادة ، كالخائن والخائنة ، والذى أتى حداً ـ أى : معصية كبيرة لم يتب منها ـ فإنه لخيانته وفسقه مفقود العدالة ، فلا تقبل شهادته .

ومن الناس من هو موصوف بالعدالة ، لكن فيه وصف يخشى أن يميل معه ، فيشهد بخلاف الحقّ وذلك كالأصول والفروع ، والمولى

والقانع لأهل البيت . فهؤلاء لا تقبل شهادتهم للمذكورين ؛ لأنه محل التهمة . وتقبل عليهم .

ومثل ذلك الزوجان ، والسيد مع مكاتبه أو عتيقه .

ومن النـاس من هو بعكس هؤلاء ، كالعدُوّ الذي في قلبه ضر ـ أى : غِلّ ـ على أخيه . فهذا إن شهد له : قبلت شهادته . وإن شهد على عدوه : لم تقبل ؛ لان العداوة تحمل غالبا على الإضرار بالعدو .

والله أعلم .

الحديث الستون

عن رافع بن خديج رضى الله عنه قال « قلت يارسول الله ، إنّا لاَقُوا العدوّ غدا ، وليس معنا مُدًى . أفنذبح بالقصب ؟ قال : ما أنهر الدمَ، وذُكر اسم الله عليه فكُلْ، ليس السنَّ والظفرَ. وسأحدثك عنه : أما السنُّ فعظمٌ . وأما الظفر فمدَى الحبشة . وأصبنا نهب إبل وغنم فنَدَّ منها بعير ، فرماه رجل بسهم فحبسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لهذه أوَابِدَ كأوابد الوحش ، فإذا غلبكم منها شيء فافعلوا به هكذا » .

متفق عليه .

قوله صلى الله عليه وسلم : « ما أنهر الدم — إلى آخره» كلام جامع يدخل فيه جميع ما يُنهِر الدم — أى يسفِكه — من حديد ، أو نحاس ، أو صفر ، أو ذهب ، أوخشب ، أو حطب ، أو حصى محدد ، أوغيرها ، وما له نفوذ كالرصاص فى البارود ؛ لأنه ينهر بنفوذه ، لا بثقله .

ودخل فى ذلك : ما صيد بالسهام ، والكلاب المعلمة ، والطيور إذا ذكر اسم الله على جميع ذلك .

وأما محل الذبح : فإنه الحلقوم والمرىء . إذا قطعهما كفي . فإن حصل معهما قطع الودَجَين — وهما العرقان المكتنفان الحلقوم — كان أولى .

وأما الصيد : فيكفى جرحه فى أى موضع كان من بدنه ؛ للحاجة إلى ذلك .

ومثل ذلك إذا ندَّ البعير أو البقرة أو الشاة وعجز عن إدراكه : فإنه يكون بمنزلة الصيد ، كما فى الحديث . ففى أى محل من بدنه جُرح كفى ، كما أن الصيد إذا قُدر عليه — وهو حى — فلا بد من ذكاته .

فالحكم يدور مع علته ، المعجوز عنه بمنزلة الصيد ، ولو من الحيوانات الإنسية . والمقدور عليه لابد من ذبحه ، ولو من الحيوانات الوحشية .

واستثنى النبى صلى الله عليه وسلم من ذلك السن ، وعلله بأنه عظم . فدل على أن جميع العظام ـ وإن أنهرت الدم ـ لايحل الذبح بها .

وقيل : إن العلة مجموع الأمرين : كونه سنا ، وكونه عظما . فيختص بالسن . والصحيح الأول .

وكذلك الظفر لا يحل الذبح بها ، لا طير ولا غيره .

فالحاصل : أن شروط الذبح : إنهار الدم فى محل الذبح ، مع كون الذابح مسلما ، أو كتابيا ، وأن يذكر اسم الله عليها .

وأما الصيد : فهو أوسع من الذبح . كما تقدم أنه فى أى موضع يكون من بدن الصيد ، وأنه يباح صيد الجوارح من الطيور والكلاب إذا كانت مُعَلَّمة ، وذُكر اسم الله عليها عند ارسالها على الصيد .

والله أعلم .

الحديث الحادى والستون

عن شدّاد بن أوْس رضى الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء. فإذا قتلتم فأحْسِنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحَة. وَلْيُحِدَّ أحدكم شَفْرَته، ولْيُرِحْ ذبيحته».

رواه مسلم.

الإحسان نوعان: إحسان فى عبادة الخالق، بأن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه. وهو الجد فى القيام بحقوق الله على وجه النصح، والتكميل لها. وإحسان فى حقوق الخلق.

وأصل الإحسان الواجب: أن تقوم بحقوقهم الواجبة، كالقيام ببر الوالدين، وصلة الأرحام، والإنصاف فى جميع المعاملات، بإعطاء جميع ما عليك من الحقوق، كما أنك تأخذ مالك وافيًا، قال تعالى: (٤ : ٣٦ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجُنُب والصاحب بالجنْب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم) فأمر بالإحسان إلى جميع هؤلاء.

ويدخل فى ذلك الإحسان إلى جميع نوع الإنسان، والإحسان إلى البهائم، حتى فى الحالة التي تزهق فيها نفوسها، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة»

فمن استحق القتل لموجب قتل يضرب عنقه بالسيف، من دون تعزير ولا تمثيل.

وقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » أى : هيئة الذبح وصفته . ولهذا قال : « وليُحِدَّ أحدكم شَفْرته » أى : سكينه : « وليرح ذبيحته » فإذا كان العبد مأموراً بالإحسان إلى من استحق القتل من الآدميين ، وبإحسان ذِبحة ما يراد ذبحه من الحيوان . فكيف بغير هذه الحالة ؟

واعلم أن الإحسان المأمور به نوعان :

أحدهما : واجب ، وهو الإنصاف ، والقيام بما يجب عليك للخلق بحسب ماتوجه عليك من الحقوق

والثانى : إحسان مستحب . وهو ما زاد على ذلك من بذل نفع بدنى ، أو مالى ، أو علمى ، أو توجيه لخير دينى ، أو مصلحة دنيوية ، فكل معروف صدقة ، وكل ما أدخل السرور على الخلق صدقة وإحسان . وكل ما أزال عنهم ما يكرهون ، ودفع عنهم مالا يرتضون من قليل أو كثير : فهو صدقة وإحسان .

ولما ذكر النبى صلى الله عليه وسلم قصة البغىّ التى سقت الكلب الشديد العطش بخفيها من البئر ، وأن الله شكر لها وغفر لها . قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن لنا فى البهائم أجراً ؟ قال : فى كل كبد حَرَّى أجر » .

فالإحسان : هو بذل جميع المنافع من أى نوع كان ، لأى مخلوق يكون ، ولكنه يتفاوت بتفاوت المحسَن إليهم ، وحقهم ومقامهم ،

وبحسب الإحسان، وعظم موقعه، وعظيم نفعه، وبحسب إيمان المحسن وإخلاصه، والسبب الداعي له إلى ذلك.

ومن أجَلّ أنواع الإحسان: الإحسان إلى من أساء إليك بقول أو فعل. قال تعالى: (٤١ : ٣٤، ٣٥ ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة، كأنه وليٌّ حميم. وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا، وما يُلَقَّاها إلا ذو حظ عظيم).

ومن كانت طريقته الإحسان أحسن الله جزاءه (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟)، (١٠ : ٢٦ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)، (٣٩ : ١٠ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة)، (٧ : ٥٦ إن رحمة الله قريب من المحسنين) أي: المحسنين في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله.

والله تعالى يوجب على عبادة العدل من الإحسان، ويندبهم إلى زيادة الفضل منه. وقال تعالى في المعاملة: (٢ : ٢٣٧ ولا تنسوا الفضل بينكم) أي: اجعلوا للفضل والإحسان موضعاً من معاملاتكم. ولا تستقصوا في جميع الحقوق، بل يسّروا ولا تعسروا، وتسامحوا في البيع والشراء، والقضاء والاقتضاء. ومن ألزم نفسه هذا المعروف، نال خيراً كثيراً، وإحساناً كبيراً. والله أعلم.

الحديث الثانى والستون

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : « حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر الحمر الإنسية ، ولحومَ البغال ، وكلَّ ذى ناب من السباع ، وكلَّ ذى مخلب من الطير » رواه الترمذى .

الأصل فى جميع الأطعمة الحلّ ؛ فإن الله أحل لعباده ما أخرجته الأرض من حبوب وثمار ونبات متنوع ، وأحل لهم حيوانات البحر كلها : حيها وميتها .

وأما حيوانات البر : فأباح منها جميع الطيبات ، كالأنعام الثمانية وغيرها ، والصيود الوحشية من طيور وغيرها .

وإنما حرم من هذا النوع الخبائث وجعل لذلك حداً وفاصلا . وربما عين بعض المحرمات ، كما عين فى هـذا الحديث الحمر الأهلية ، والبغال وحرمها . وقال : « إنها رِجْس » .

وأما الحمر الوحشية : فإنها حلال ، وكذلك حرم ذوات الأنياب من السباع ، كالذئب والأسد والنمر والثعلب والكلب ونحوها ، وكل ذى مخلب من الطير يصيد بمخلبه ، كالصقر والباشق ونحوهما .

وما نهى عن قتله كالصُّرد ، أو أمر بقتله كالغراب ونحوها : فإنها محرمة . وما كان خبيثاً ، كالحيات والعقارب والفئران وأنواع الحشرات وكذلك ما مات حتف أنفه من الحيوانات المباحة ، أو ذُكِّى ذكاة غير شرعية : فإنه محرم . والله أعلم .

الحديث الثالث والستون

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال »

رواه البخاري .

الأصل في جميع الأمور العادية الإباحة ، فلا يحرم منها إلا ما حرمه الله ورسوله : إما لذاته كالمغصوب ، وما خبث مكسبه في حق الرجال والنساء . وإما لتخصيص الحل بأحد الصنفين ، كما أباح الشارع حل لباس الذهب والفضة والحرير للنساء ، وحرمه على الرجال .

وأما تحريم الشارع تشبه الرجال بالنساء ، والنساء بالرجال : فهو عام في اللباس ، والكلام ، وجميع الأحوال .

فالأمور ثلاثة أقسام :

قسم مشترك بين الرجال والنساء من أصناف اللباس وغيره : فهذا جائز للنوعين ؛ لأن الأصل الإباحة . ولا تشبه فيه .

وقسم مختص بالرجال ، فلا يحل للنساء . وقسم مختص بالنساء ، فلا يحل للرجال .

ومن الحكمة في النهي عن التشبه : أن الله تعالى جعل للرجال على النساء درجة ، وجعلهم قوامين على النساء ، وميزهم بأمور قدرية ، وأمور شرعية فقيام هذا التميز وثبوت فضيلة الرجال على النساء ،

مقصود شرعاً وعقلا فتشبه الرجال بالنساء يهبط بهم من هذه الدرجة الرفيعة. وتشبه النساء بالرجال يبطل التمييز.

وأيضاً، فتشبه الرجال بالنساء بالكلام واللباس ونحو ذلك : من أسباب التخنث، وسقوط الأخلاق، ورغبة المتشبه بالنساء فى الاختلاط بهن، الذى يخشى منه المحذور. وكذلك بالعكس.

وهذه المعانى الشرعية، وحفظ مراتب الرجال ومراتب النساء، وتنزيل كل منهم منزلته التى أنزله الله بها : مستحسن عقلا، كما أنه مستحسن شرعاً.

وإذا أردت أن تعرف ضرر التشبه التام ، وعدم اعتبار المنازل، فانظر فى هذا العصر إلى الاختلاط الساقط الذى ذهبت معه الغيرة الدينية، والمروءة الإنسانية والأخلاق الحيدة، وحَلّ محله ضد ذلك من كل خلق رذيل .

ويشبه هذا ـ أو هو أشد منه ـ تشبه المسلمين بالكفار فى أمورهم المختصة بهم. فإنه صلى الله عليه وسلم قال: « من تشبه بقوم فهو منهم » فإن التشبه الظاهر يدعو إلى التشبه الباطن، والوسائلُ والذرائع إلى الشرور قصد الشارع حَسْمها من كل وجه.

الحديث الرابع والستون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء » .

رواه البخاري .

الإنزال هنا بمعنى : التقدير .

ففي هذا الحديث : إثبات القضاء والقدر . وإثبات الأسباب .

وقد تقدم أن هذا الأصل العظيم ثابت بالكتاب والسنة ويؤيده العقل والفطرة . فالمنافع الدينية والدنيوية والمضار كلها بقضاء الله وتقديره . قد أحاط بها علماً . وجرى بها قلمه . ونفذت بها مشيئته . ويسّر العبادَ لفعل الأسباب التي توصلهم إلى المنافع والمضار . فكلٌ مُيَسّرٌ لما خلق له : من مصالح الدين والدنيا ، ومضارهما . والسعيد من يَسّره الله لأيسر الأمور ، وأقربها إلى رضوان الله ، وأصلحها لدينه ودنياه. والشقي من انعكس عليه الأمر .

وعموم هذا الحديث يقتضي : أن جميع الأَمراض الباطنة والظاهرة لها أدوية تقاومها ، تدفع ما لم ينزل ، وترفع ما نزل بالكلية ، أو تخففه .

وفي هذا : الترغيب في تعلم طب الأَبدان ، كما يتعلم طب القلوب ، وأن ذلك من جملة الأَسباب النافعة . وجميع أُصول الطب وتفاصيله ، شرح لهذا الحديث . لأن الشارع أخبرنا أن جميع الأدواء لها أدوية .

فينبغى لنا أن نسعى إلى تعلمها ، وبعد ذلك إلى العمل بها وتنفيذها .

وقد كان يظن كثير من الناس أن بعض الأمراض ليس له دواء ، كالسل ونحوه . وعند ماارتقى علم الطب ، ووصل الناس إلى ما وصلوا إليه من علمه ، عرف الناس مصداق هذا الحديث ، وأنه على عمومه .

وأصول الطب : تدبير الغذاء ، بأن لا يأكل حتى تصدق الشهوة وينهضم الطعام السابق انهضاماً تاماً ، ويتحرى الأنفع من الأغذية ، وذلك بحسب حالة الأقطار والأشخاص والأحوال . ولا يمتلئ من الطعام امتلاء يضره مزاولته ، والسعى فى تهضيمه ، بل الميزان قوله تعالى (٧ : ٣١ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا)

ويستعمل الحِمْية عن جميع المؤذيات فى مقدارها ، أو فى ذاتها ، أو فى وقتها . ثم إن أمكن الاستفراغ ، وحصل به المقصود ، من دون مباشرة الأدوية : فهو الأولى والأنفع . فإن اضطر إلى الدواء : استعمله بمقدار . وينبغى أن لا يتولى ذلك إلا عارف وطبيب حاذق .

واعلم أن طيب الهواء ، ونظافة البدن والثياب ، والبعد عن الروائح الخبيثة : خير عون على الصحة . وكذلك الرياضة المتوسطة . فإنها تقوي الأعضاء والأعصاب والأوتار ، وتزيل الفضلات ، وتهضم الأغذية الثقيلة ، وتفاصيل الطب معروفة عند الأطباء . ولكن هذه الاصول التى ذكرناها يحتاج إليها كل أحد .

وصح عنه صلى الله عليه وسلم « الشفاء فى ثلاث : شَرْطَة مِحْجَم ، أو شربة عسل ، أو كَيَّة بنار . وفى الحبة السوداء شفاء من كل داء » . «العود الهندى فيه سبعة أَشْفِيَة» ، « يُسَعَّط من العُذرة ويُلَدّ من ذات الجنب » ، « الحمى من فيح جهنم ، فأبردوها بالماء» ، «ورخص فى الرُّقية من العين والحُمَة والنملة » ، « وإذا استُغْسِلتم من العين فاغسلوا » ، « ونهى عن الدواء الخبيث » ، « وأمر بخضاب الرجلين لوجعهما »

الحديث الخامس والستون

عن أبى قتادة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرؤيا الصالحة من الله . والحلم من الشيطان . فإذا رأى أحدُكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوّذ بالله من شرها ومن شر الشيطان . وليتْفُلْ ثلاثاً ، ولا يحدث بها أحداً ، فإنها لن تضره »

متفق عليه .

أخبر صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث : أن الرؤيا الصالحة من الله ، أى : السالمة من تخليط الشيطان وتشويشه . وذلك لأن الإنسان إذا نام خرجت روحه . وحصل لها بعض التجرد الذى تتهيأ به لكثير من العلوم والمعارف . وتلطفت مع ما يلهمها الله ، ويلقيه إليها الملك فى منامها . فتتنبه وقد تجلت لها أمور كانت قبل ذلك مجهولة،أو ذكرت

أموراً قد غفلت عنها . أو تنبهت لأحوال ينفعها معرفتها ، أو العمل بهـا ، أو حَذِرَتْ مضار دينية أو دنيوية لم تـكن لها على بال ، أو اتعظت ورغبت ورهبت عن أعمال قد تلبست بها ، أو هى بصدد ذلك ، أو تنبهت لبعض الأعيان الجزئية لإدخالها فى الأحكام الشرعية .

فـكل هذه الأمور علامة على الرؤيا الصالحة ، التى هى جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة . وما كان من النبوة فهو لا يكذب .

فانظر إلى رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (٨ : ٤٣ إذ يريكهم الله فى منامك قليـلا ، ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سَلَّم. إنه عليم بذات الصدور) كم حصل بها من منافع واندفع من مضار .

وكذلك قوله تعالى (٤٨ : ٢٧ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق، لتدخُلنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين ، مُحلِّقين رءوسَكم ومقصرين لا تخـافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) كم حصل بها من زيادة إيمان . وتم بها من كمال إيقان . وكانت من آيات الله العظيمة .

وانظر إلى رؤيا ملك مصر وتأويل يوسف الصديق لها ، وكما تولَّى التأويل فقد ولاَّه الله ما احتوت عليه من التدبير . فحصل بذلك خيرات كثيرة ، ونعم غزيرة واندفع بها ضرورات وحاجات . ورفع الله بها يوسف فوق العباد درجات .

وتأمل رؤيا عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما الأذان والإقامة، وكيف صارت سبباً لشرع هذه الشعيرة المطيبة التي هي من أعظم الشعائر الدينية.

ومرائي الأنبياء والأولياء والصالحين ـ بل وعموم المؤمنين وغيرهم ـ معروفة مشهورة، لا يحصى ما اشتملت عليه من المنافع المهمة، والثمرات الطيبة. وهي من جملة نعم الله على عباده، ومن بشارات المؤمنين، وتنبيهات الغافلين، وتذكيره للمعرضين، وإقامة الحجة على المعاندين.

وأما الحلم الذي هو أضغاث أحلام: فإنما هو من تخليط الشيطان على روح الإنسان، وتشويشه عليها وإنزاعها، وجلب الأمور التي تكسبها الهم والغم، أو توجب لها الفرح والمرح والبطر، أو تزعجها للشر والفساد والحرص الضار.

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك أن يأخذ العبد في الأسباب التي تدفع شره بأن لا يحدث به أحداً. فإن ذلك سبب لبطلانه واضمحلاله، وأن يتفل عن يمينه وشماله ثلاث مرات. وأن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، الذي هو سبب هذا الحلم والدافع له، وليطمئن قلبه عند ذلك أنه لا يضره، مصداقاً لقول رسوله، وثقة بنجاح الأسباب النافعة له.

وأما الرؤيا الصالحة: فينبغي أن يحمد الله عليها، ويسأله تحقيقها، ويحدث بها من يحب ويعلم منه المودة، ليُسرّ لسروره: ويدعو له في

ذلك . ولا يحدث بها من لا يحب ، لئلا يشوش عليه بتأويل يوافق هواه ، أو يسعى ـ حسداً منه ـ فى إزالة النعمة عنه .

ولهذا لما رأى يوسف الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر ساجدين له . وحدث بها أباه قال له (١٢ : ٥ يا بنى : لا تقصص رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا لك كيداً ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين) .

ولهذا كان كَتْم النعم عن الأعداء ـ مع الإمكان ـ أولى ، إلا إذا كان فى ذلك مصلحة راجحة .

واعلم أن الرؤيا الصادقة تارة يراها العبد على صورتها الخارجية ، كما فى رؤيا الأذان وغيرها ، وتارة يضرب له فيها أمثال محسوسة ، ليعتبر بها الأمور المعقولة ، أو المحسوسة التى تشبهها ، كرؤيا ملك مصر ونحوها . وهى تختلف باختلاف الرائى والوقت والعادة ، وتنوع الأحوال .

الحديث السادس والستون

عن على بن الحسين رحمه الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من حُسْن إسلام المرء تَرْكُه ما لا يَعْنيه » .

رواه مالك وأحمد . ورواه ابن ماجه عن أبى هريرة ، ورواه الترمذى عن على بن الحسين وعن أبى هريرة .

الإسلام ـ عند الإطلاق ـ يدخل فيه الإيمان ، والإحسان . وهو شرائع الدين الظاهرة والباطنة . والمسلمون منقسمون فى الإسلام إلى قسمين ، كما دل عليه فحوى هذا الحديث .

فمنهم : المحسن فى إسلامه . ومنهم : المسىء .

فمن قام بالإسلام ظاهراً وباطناً فهو المحسن (٤ :١٢٥ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، واتَّخَذ الله إبراهيم خليلا ؟) .

فيشتغل هذا المحسن عما يعنيه ، مما يجب عليه تركه من المعاصى والسيئات ، ومما ينبغى له تركه ، كالمكروهات وفضول المباحات التى لا مصلحة له فيها ؛ بل تفوت عليه الخير .

فقوله صلى الله عليه وسلم : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » يعم ماذكرنا .

ومفهوم الحديث : أن من لم يترك ما لا يعنيه ؛ فإنه مسىء فى

إسلامه . وذلك شامل للأقوال والأفعال ، المنهى عنها نهى تحريم أو نهى كراهة .

فهذا الحديث يُعدّ من الكلمات العامة الجامعة . لأنها قسمت هذا التقسم الحاصر ، وبينت الأسباب التى يتم بها حسن الإسلام ، وهو الاشتغال بما يعنى ، وترك ما لا يعنى من قول وفعل . والأسباب التى يكون بها العبد مسيئاً . وهى ضد هذه الحال . والله أعلم .

الحديث السابع والستون

عن أيوب بن موسى بن عمرو بن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما نحَل والدٌ ولدَه من نحْل أفضل منْ أدب حسَن »

رواه الترمذى .

أولى الناس ببرّك ، وأحقهم بمعروفك : أولادُك ؛ فإنهم أمانات جعلهم الله عندك ، ووصاك بتربيتهم تربية صالحة لأبدانهم وقلوبهم ، وكل ما فعلته معهم من هذه الأمور ، دقيقها وجليلها ، فإنه من أداء الواجب عليك ، ومن أفضل ما يقربك إلى الله ، فاجتهد فى ذلك ، واحتسبه عند الله ، فكما أنك إذا أطعمتهم وكسوتهم وقمت بتربية أبدانهم : فأنت قائم بالحق مأجور . فكذلك ـ بل أعظم من ذلك ـ إذا قمت بتربية قلوبهم وأرواحهم بالعلوم النافعة ، والمعارف الصادقة ، والتوجيه للأخلاق الحميدة ، والتحذير من ضدها .

و « النحل » : هى العطايا والإحسان . فالآداب الحسنة خير للأولاد

حالا ومآلا من إعطائهم الذهب والفضة ، وأنواع المتاع الدنيوى لأن بالآداب الحسنة ، والأخلاق الجميلة : يرتفعون ، وبها يسمدون ، وبها يؤدون ما عليهم : من حقوق الله وحقوق العباد ، وبها يجتنبون أنواع المضار ، وبها يتم برهم لوالديهم .

أما إهمال الأولاد : فضرره كبير ، وخطره خطير . أرأيت لو كان لك بستان فنميته ، حتى استتمت أشجاره ، وأينعت ثماره ، وتزخرفت زروعه وأزهاره . ثم أهملته فلم تحفظه ، ولم تَسْقِه ولم تُنَقِّه من الآفات ، وتعده للنموّ فى كل الأوقات ، أليس هذا من أعظم الجهل والحمق؟ فكيف تهمل أولادك الذين هم فِلْذة كبدك ، وثمرة فؤادك ، ونسخة روحك ، والقائمون مقامك حياً وميتا ، الذين بسعادتهم تتم سعادتك . وبفلاحهم ونجاحهم تدرك به خيراً كثيراً (وما يذكر إلا أولوا الألباب) .

الحديث الثامن والستون

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الجليس الصالح والسوء : كحامل المسك ، ونافخ الكير . فحامل المسك : إما أن يُحْذِيَك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة . ونافخ الكير : إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة »

متفق عليه .

اشتمل هذا الحديث على الحث على اختيار الأصحاب الصالحين ، والتحذير من ضدهم .

ومثّل النبي صلى الله عليه وسلم بهذين المثالين ، مبيناً أن الجليس الصالح : جميع أحوالك معه وأنت في مغنم وخير ، كحامل المسك الذي تنتفع بما معه من المسك : إما بهبة ، أو بعوض . وأقل ذلك : مدة جلوسك معه ، وأنت قرير النفس برائحة المسك .

فالخير الذي يصيبه العبد من جليسه الصالح أبلغ وأفضل من المسك الأذفر ، فإنه إما أن يعلمك ما ينفعك في دينك ودنياك ، أو يهدى لك نصيحة ، أو يحذرك من الإقامة على ما يضرك . فيحثك على طاعة الله ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، ويبصرك بعيوب نفسك ، ويدعوك إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها ، بقوله وفعله وحاله فإن الإنسان مجبول على الاقتداء بصاحبه وجليسه ، والطباع والأرواح جنود مجندة ، يقود بعضها بعضاً إلى الخير ، أو إلى ضده .

وأقل ما تستفيده من الجليس الصالح ـ وهي فائدة لا يستهان بها ـ أن تنكف بسببه عن السيئات والمعاصي ، رعاية للصحبة ، ومنافسة في الخير ، وترفعاً عن الشر ، وأن يحفظك في حضرتك ومغيبك ، وأن تنفعك محبته ودعاؤه في حال حياتك وبعد مماتك ، وأن يدافع عنك بسبب اتصاله بك ، ومحبته لك .

وتلك أمور لا تباشر أنت مدافعتها ، كما أنه قد يصلك بأشخاص وأعمال ينفعك اتصالك بهم .

وفوائد الأصحاب الصالحين لا تعد ولا تحصى. وحسب المرء أن يعتبر بقرينه، وأن يكون على دين خليله.

وأما مصاحبة الأشرار: فإنها بضد جميع ما ذكرنا. وهم مضرة من جميع الوجوه على من صاحبهم، وشر على من خالطهم. فكم هلك بسببهم أقوام. وكم قادوا أصحابهم إلى المهالك من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون.

ولهذا كان من أعظم نعم الله على العبد المؤمن: أن يوفقه لصحبة الأخيار. ومن عقوبته لعبده: أن يبتليه بصحبة الأشرار.

صحبة الأخيار توصل العبد إلى أعلى عليين، وصحبة الأشرار توصله إلى أسفل سافلين.

صحبة الأخيار توجب له العلوم النافعة، والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة، وصحبة الأشرار: تحرمه ذلك أجمع (٢٥: ٢٧-٢٩ ويوم يَعَضُّ الظالم على يديه يقول: ياليتني اتَّخَذْتُ مع الرسول سبيلا. ياويلتَى، ليتني لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلَّني عن الذكر بعد إذ جاءني. وكان الشيطان للإنسان خَذولا).

الحديث التاسع والستون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يُلْدَغ المؤمن من جُحْرٍ واحدٍ مرتين » .
متفق عليه .

هذا مثل ضربه النبي صلى الله عليه وسلم : لبيان كمال احتراز المؤمن ويقظته ، وأن المؤمن يمنعه إيمانه من اقتراف السيئات التي تضره مقارفتها ، وأنه متى وقع في شيء منها ، فإنه في الحال يبادر إلى الندم والتوبة والإنابة .

ومن تمام توبته : أن يحذر غاية الحذر من ذلك السبب الذي أوقعه في الذنب ، كحال من أدخل يده في جُحر فلدغته حيَّة فإنه بعد ذلك لا يكاد يدخل يده في ذلك الجحر ، لما أصابه فيه أول مرة .

وكما أن الإيمان يحمل صاحبه على فعل الطاعات . ويرغبه فيها . ويحزنه لفواتها . فكذلك يزجره عن مقارفة السيئات، وإن وقعت بادر إلى النزوع عنها . ولم يعد إلى مثل ما وقع فيه .

وفي هذا الحديث : الحث على الحزم والكَيْس في جميع الأمور . ومن لوازم ذلك : تعرف الأسباب النافعة ليقوم بها ، والأسباب الضارة ليتجنبها .

ويدل على الحث على تجنب أسباب الرِّيَب التي يخشى من مقاربتها الوقوع في الشر .

وعلى أن الذرائع معتبرة وقد حذر الله المؤمنين من العود إلى ما زينه الشيطان من الوقوع فى المعاصى، فقال (٢٤ : ١٧ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين) ولهذا فإن من ذاق الشر من التائبين تكون كراهته له أعظم، وتحذيره وحذره عنه أبلغ؛ لأنه عرف بالتجربة آثاره القبيحة .

وفى الحديث : « الأناة من الله ، والعجلة من الشيطان ، ولا حليم إلا ذو عثرة ، ولا حكيم إلا ذو تجربة » والله أعلم .

الحديث السبعون

عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يا أبا ذرّ ، لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف ، ولا حسب كحسن الخلق »

رواه البيهقي فى شعب الإيمان

هذا الحديث اشتمل على ثلاث جمل ، كل واحدة منها تحتها علم عظيم :

أما الجملة الأولى : فهى فى بيان العقل وآثاره وعلاماته ، وأن العقل الممدوح فى الكتاب والسنة : هو قوة ونعمة أنعم الله بها على العبد ، يعقل بها الأشياء النافعة ، والعلوم والمعارف ، ويتعقل بها ويمتنع من الأمور الضارة والقبيحة . فهو ضرورى للإنسان . لا يستغنى عنه فى كل أحواله الدينية والدنيوية ، إذ به يعرف النافع والطريق إليه .

ويعرف الضار وكيفية السلامة منه . والعقل يعرف بآثاره .

فبين صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث آثاره الطيبة ، فقال : « لاعقل كالتدبير » أى : تدبير العبد لأمور دينه ، ولأمور دنياه .

فتدبيره لأمور دينه : أن يسعى فى تعرّف الصراط المستقيم ، وما كان عليه النبي الكريم ، من الأخلاق والهدى والسّمت . ثم يسعى فى سلوكه بحالة منتظمة . كما قال صلى الله عليه وسلم : « استعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلجة ، والقصدَ القصد ، تبلغوا » .

وقد تقدم شرح هذا الحديث ، وبيان الطريق الذى أرشد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنها طريق سهلة توصل إلى الله ، وإلى دار كرامته بسهولة وراحة ، وأنها لاتفوّت على العبد من راحاته وأموره الدنيوية شيئاً ، بل يتمكن العبد معها من تحصيل المصلحتين ، والفوز بالسعادتين ، والحياة الطيبة .

فمتى دبر أحواله الدينية بهذا الميزان الشرعى : فقد كمل دينه وعقله . لأن المطلوب من العقل : أن يوصل صاحبه إلى العواقب الحميدة ، من أقرب طريق وأيسره .

وأما تدبير المعاش : فإن العاقل يسعى فى طلب الرزق بما يتضح له أنه أنفع له وأجدى عليه فى حصول مقصوده . ولا يتخبط فى الأسباب خبط عشواء ، لا يقر له قرار ، بل إذا رأى سبباً فتح له به باب رزق فليلزمه ، وليثابر عليه ، وليُجمل فى الطلب . ففى هذا بركة مجربة .

ثم يدبر تدبيراً آخر . وهو التدبير فى التصريف والإنفاق ، فلا ينفق فى طرق محرمة ، أو طرق غير نافعة ، أو يسرف فى النفقات المباحة ، أو يُقتّر . وميزان ذلك: قوله تعالى فى مدح الأخيار (٢٥ : ٦٧ والذين إذا انفقوا لم يُسرفوا ولم يقتُروا وكان بين ذلك قواما) .

فحسن التدبير فى كسب الأرزاق ، وحسن التدبير فى الانفاق ، والتصريف ، والحفظ ، وتوابع ذلك : دليل على كمال عقل الإنسان ورزانته ورشده .

وضد ذلك : دليل على نقصان عقله ، وفساد لُبّه

الجملة الثانية : قوله صلى الله عليه وسلم « لا ورع كالكف » .

فهذا حدّ جامع للورع . بين به رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن الورع الحقيقي هو الذى يكفُّ نفسه ، وقلبه ولسانه ، وجميع جوارحه عن الأمور المحرمة الضارة . فكل ما قاله أهل العلم فى تفسير الورع ، فإنه يرجع إلى هذا التفسير الواضح الجامع

فمن حفظ قلبه عن الشكوك والشبهات ، وعن الشهوات المحرمة والغِلّ والحقد ، وعن سائر مساوئ الأخلاق وحفظ لسانه عن الغيبة والنميمة والكذب والشتم ، وعن كل إثم وأذى ، وكلام محرم ، وحفظ فرجه وبصره عن الحرام ، وحفظ بطنه عن أكل الحرام ، وجوارحه عن كسب الآثام : فهذا هو الورع حقيقة .

ومن ضيع شيئاً من ذلك نقص من ورعه بقدر ذلك ، ولهذا قال شيخ الإسلام : « الورع ترك ما يخشى ضرره فى الآخرة » .

الجملة الثالثة : قوله صلى الله عليه وسلم : « ولاَ حَسَبَ كحسن الخلق » .

وذلك أن الحسب مرتبة عالية عند الخلق . وصاحب الحسب له اعتبار وشرف بحسب ذلك . وهو نوعان :

النوع الأول : حسب يتعلق بنسب الإنسان وشرف بيته . وهذا النوع إنما هو مدح ؛ لأنه مظنة أن يكون صاحبه عاملا بمقتضى حسبه ، مترفعاً عن الدنايا ، متحلياً بالمكارم . فهو مقصود لغيره .

وأما النوع الثانى : فهو الحسب الحقيقى الذى هو وصف للعبد ، وجمال له وزينة ، وخير فى الدنيا والدين ، وهو حسن الخلق المحتوى على الحلم الواسع ، والصبر والعفو ، وبذل المعروف والإحسان ، واحتمال الإساءة والأذى ، ومخالقة طبقات الناس بخلق حسن .

وإن شئت فقل : حسن الخلق نوعان :

الأول : حسن الخلق مع الله ، وهو أن تتلقى أحكامه الشرعية والقدرية بالرضى والتسليم لحكمه ، والانقياد لشرعه ، بطمأنينة ورضى ، وشكر لله على ما أنعم به : من الأمر والتوفيق ، والصبر على أقداره المؤلمة والرضى بها .

الثانى : حسن الخلق مع الخلق ، وهو بذل الندى ، واحتمال الأذى ،

وكف الأذى ، كما قال تعالى: (٧:١٩٩ خذ العفو وأمُر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)، (٤١ : ٣٤ ، ٣٥ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ؛ ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه وَلِيٌّ حميم . وما يُلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) .

فمن قام بحسن الخلق مع الله ومع الخلق : فقد نال الخير والفلاح .

والله أعلم .

الحديث الحادى والسبعون

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « جاء رجل ، فقال : يا رسول الله ، أوصنى . فقال : لا تغضب . ثم ردّدَ مراراً . فقال : لا تغضب » .

رواه البخارى .

هذا الرجل ظن أنها وصية بأمر جزئى . وهو يريد أن يوصيه النبي صلى الله عليه وسلم بكلام كلى . ولهذا ردد . فلما أعاد عليه النبى صلى الله عليه وسلم عرف أن هذا كلام جامع . وهو كذلك ؛ فإن قوله : لاتغضب » يتضمن أمرين عظيمين :

أحدهما : الأمر بفعل الأسباب ، والتمرن على حسن الخلق : والحلم والصبر ، وتوطين النفس على ما يصيب الإنسان من الخلق ، من الأذى القولى والفعلى . فإذا وفّق لها العبد ، وورد عليه وارد الغضب احتمله بحسن خلقه ، وتلقاه بحلمه وصبره ، ومعرفته بحسن عواقبه ؛ فإن الأمر بالشيء أمر به ، وبما لايتم إلا به . والنهى عن الشيء أمر بضده . وأمر بفعل الأسباب التى تعين العبد على اجتناب المنهى عنه . وهذا منه .

الثانى : الأمر ــ بعد الغضب ــ أن لاينفذ غضبه ؛ فإن الغضب غالباً لا يتمكن الإنسان من دفعه ورده ، ولكنه يتمكن من عدم تنفيذه . فعليه إذا غضب أن يمنع نفسه من الأقوال والأفعال المحرمة التى يقتضيها الغضب .

فمتى منع نفسه من فعل آثار الغضب الضارة ، فكأنه فى الحقيقة لم يغضب . وبهذا يكون العبد كامل القوة العقلية ، والقوة القلبية ، كما قال صلى الله عليه وسلم : «ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » .

فكمال قوة العبد : أن يمتنع من أن تؤثر فيه قوة الشهوة ، وقوة الغضب الآثارَ السيئة ، بل يصرف هاتين القوتين إلى تناول ما ينفع في الدين والدنيا ، وإلى دفع ما يضر فيهما .

فخير الناس : من كانت شهوته وهواه تبعاً لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وغضبه ومدافعته فى نصر الحق على الباطل .

وشر الناس : من كان صريع شهوته وغضبه . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الحديث الثاني والسبعون

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذَرَّة من كِبْر . فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ، ونعله حسنا ؟ فقال : إن الله جميل يحب الجمال . الـكبر: بَطْر الحق ، وغَمْط الناس » . رواه مسلم .

قد أخبر الله تعالى : أن النار مثوى المتـكبرين . وفى هذا الحديث : أنه « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » فدل على أن الـكبر موجب لدخول النار ، ومانع من دخول الجنة .

وبهذا التفسير الجامع الذى ذكره النبى صلى الله عليه وسلم يتضح هذا المعنى غاية الاتضاح ؛ فإنه جعل الـكبر نوعين :

كبر النوع الأول : على الحق ، وهو رده وعدم قبوله . فـكل من رد الحق فإنه مستكبر عنه بحسب ما رد من الحق . وذلك أنه فرض على العباد أن يخضعوا للحق الذى أرسل الله به رسله ، وأنزل به كتبه .

فالمتـكبرون عن الانقياد للرسل بالـكلية كفارٌ مخلدون فى النار ؛ فإنه جاءهم الحق على أيدى الرسل مؤيداً بالآيات والبراهين . فقام الـكبر فى قلوبهم مانعا ، فردوه . قال تعالى : (٤٠ : ٥٦ إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ، إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) .

وأما المتـكبرون عن الانقياد لبعض الحق الذى يخالف رأيهم

وهواهم : فهم ـ وإن لم يكونوا كفاراً ـ فإن معهم من موجبات العقاب بحسب ما معهم من الكبر . وما تأثروا به من الامتناع عن قبول الحق الذي تبين لهم بعد مجيء الشرع به . ولهذا أجمع العلماء أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم يحل له أن يعدل عنها لقول أحد ، كائناً من الناس من كان .

فيجب على طالب العلم : أن يعزم عزماً جازماً على تقديم قول الله وقول رسوله صلى الله عليه وسلم على قول كل أحد ، وأن يكون أصله الذي يرجع إليه ، وأساسه الذي يبنى عليه : الاهتداء بهدى النبي صلى الله عليه وسلم ، والاجتهاد في معرفة مراده ، واتباعه في ذلك ، ظاهراً وباطناً .

فمتى وُفق لهذا الأمر الجليل فقد وفق للخير ، وصار خطؤه معفواً عنه ؛ لأن قصده العام اتباع الشرع . فالخطأ معذور فيه إذا فعل مستطاعه من الاستدلال والاجتهاد في معرفة الحق . وهذا هو المتواضع للحق .

وأما الكبر على الخلق ـ وهو النوع الثاني ـ : فهو غمطهم واحتقارهم ، وذلك ناشىء عن عجب الإنسان بنفسه ، وتعاظمه عليهم . فالعجب بالنفس يحمل على التكبر على الخلق ، واحتقارهم والاستهزاء بهم ، وتنقيصهم بقوله وفعله . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بحسب امريء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » .

ولما قال هذا الرجل : « إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً

ونعله حسنا » وخشي أن يكون هذا من الكبر الذى جاء فيه الوعيد : بين له النبي صلى الله عليه وسلم : أن هذا ليس من الكبر ، إذا كان صاحبه منقاداً للحق ، متواضعاً للخلق ، وأنه من الجمال الذى يحبه الله ؛ فإنه تعالى جميل فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، يحب الجمال الظاهرى، والجمال الباطنى .

فالجمال الظاهر : كالنظافة في الجسد ، والملبس ، والمسكن ، وتوابع ذلك .

والجمال الباطن : التجمل بمعالى الأخلاق ومحاسنها .

ولهذا كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم : «اللهم اهدنى لأحْسَن الأعمال والأخلاق ، لا يهدى لأحسَنِها إلا أنت . واصرف عنى سَيِّيء الأعمال والأخلاق ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت » . والله أعلم .

الحديث الثالث والسبعون

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه » رواه مسلم .

حكم صلى الله عليه وسلم بالفلاح لمن جمع هذه الخلال الثلاث .

و « الفلاح » اسم جامع لحصول كل مطلوب محبوب ، والسلامة من كل مخوف مرهوب.

وذلك أن هذه الثلاث جمعت خير الدين والدنيا ، فإن العبد إذا هدى للإسلام الذى هو دين الله . الذى لا يقبل ديناً سواه ، وهو مدار الفوز بالثواب والنجاة من العقاب ، وحصل له الرزق الذى يكفيه ويكُفّ وجهه عن سؤال الخلق ، ثم تمم الله عليه النعمة ، بأن قنّعه بما آتاه ، أى: حصل له الرضى بما أوتى من الرزق والكفاف ، ولم تطمع نفسه لما وراء ذلك : فقد حصل له حسنة الدنيا والآخرة .

فإن النقص بفوات هذه الأمور الثلاثة أو أحدها : إما أن لا يُهْدَى للإسلام : فهذا مهما كانت حاله ، فإن عاقبته الشقاوة الأبدية . وإما بأن يهدى للإسلام ، ولكنه يبتلى : إما بفقر يُنْسِى ، أو غنى يُطْغِي : وكلاهما ضرر ونقص كبير. وإما بأن يحصل له الرزق الكافى موسعاً أو مقدراً ، ولكنه لا يقنع برزق الله ، ولا يطمئن قلبه بما آتاه الله : فهذا فقير القلب والنفس .

فإنه ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى القلب ، فكم من صاحب ثروة وقلبه فقير متحسر ، وكم من فقير ذات اليـد ، وقلبه غنى راض ، قانع برزق الله .

فالحازم إذا ضاقت عليه الدنيا لم يجمع على نفسه بين ضيقها وفقرها ، وبين فقر القلب وحسرته وحزنه ، بل كما يسعى لتحصيـل الرزق ، فليسع لراحة القلب ، وسكونه وطمأنينته . والله أعلم .

الحديث الرابع والسبعون

عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، عِظْني وأوجز. فقال: إذا قمت في صلاتك فصلِّ صلاة مودِّع، ولا تَكَلَّم بكلام تعذر منه غداً، واجمع اليأس مما في أيدي الناس».

رواه أحمد.

هذه الوصايا الثلاث يا لها من وصايا، إذا أخذ بها العبد: تمت أموره وأفلح.

فالوصية الأولى: تتضمن تكميل الصلاة، والاجتهاد في إيقاعها على أحسن الأحوال. وذلك بأن يحاسب نفسه على كل صلاة يصليها، وأن سيتم جميع ما فيها: من واجب، وفرض، وسنة، وأن يتحقق بمقام الإحسان الذي هو أعلى المقامات. وذلك بأن يقوم إليها مستحضراً وقوفه بين يدي ربه، وأنه يناجيه بما يقوله: من قراءة وذكر ودعاء. ويخضع له في قيامه وركوعه، وسجوده وخفضه ورفعه

ويعينه على هذا المقصد الجليل: توطين نفسه على ذلك من غير تردد ولا كسل قلبي، ويستحضر في كل صلاة أنها صلاة مودع، كأنه لا يصلي غيرها.

ومعلوم أن المودع، يجتهد اجتهاداً يبذل فيه كل وسعه. ولا يزال

مستصحباً لهذه المعانى النافعة ، والأسباب القوية ، حتى يسهل عليه الأمر ، ويتعود ذلك .

والصلاة على هذا الوجه : تنهى صاحبها عن كل خلق رذيل ، وتحثه على كل خلق جميل ؛ لما تؤثره فى نفسه من زيادة الإيمان ، ونور القلب وسروره ، ورغبته التامة فى الخير .

وأما الوصية الثانية : فهى حفظ اللسان ومراقبته ؛ فإن حفظ اللسان عليه المدار ، وهو مِلاك أمر العبد . فمتى ملك العبد لسانه ملك جميع أعضائه . ومتى ملكه لسانه فلم يصنه عن الكلام الضار ، فإن أمره يختل فى دينه ودنياه . فلا يتكلم بكلام ، إلا قد عرف نفعه فى دينه أو دنياه . وكل كلام يحتمل أن يكون فيه انتقاد أو اعتذار فليدعه ، فإنه إذا تكلم به ملكه الكلام ، وصار أسيراً له . وربما أحدث عليه ضرراً لا يتمكن من تلافيه .

وأما الوصية الثالثة : فهى توطين النفس على التعلق بالله وحده ، فى أمور معاشه ومعاده : فلا يسأل إلا الله ، ولا يطمع إلا فى فضله . ويوطن نفسه على اليأس مما فى أيدى الناس ؛ فإن اليأس عصمة . ومن أيس من شيء استغنى عنه . فكما أنه لا يسأل بلسانه إلا الله ، فلا يعلق قلبه إلا بالله . فيبقي عبداً لله حقيقة ، سالماً من عبودية الخلق . قد تحرر من رقهم ، واكتسب بذلك العز والشرف ؛ فإن المتعلق بالخلق يكتسب الذل والسقوط بحسب تعلقه بهم . والله أعلم .

الحديث الخامس والسبعون

عن مصعب بن سعد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم ؟ » .

رواه البخاري .

فهذا الحديث فيه : أنه لا ينبغي للأقوياء القادرين أن يستهينوا بالضعفاء العاجزين ، لا في أمور الجهاد والنصرة ، ولا في أمور الرزق وعجزهم عن الكسب .

بين الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قد يحدث النصر على الأعداء وبسط الرزق بأسباب الضعفاء ، بتوجههم ودعائهم ، واستنصارهم واسترزاقهم .

وذلك : أن الأسباب التي تحصل بها المقاصد نوعان .

نوع يشاهد بالحس ، وهو القوة بالشجاعة القولية والفعلية ، وبحصول الغنى والقدرة على الكسب . وهذا النوع هو الذي يغلب على قلوب أكثر الخلق . ويعلقون به حصول النصر والرزق ، حتى وصلت الحال بكثير من أهل الجاهلية أن يقتلوا أولادهم خشية الفقر ووصلت بغيرهم إلى أن يتضجروا بعوائلهم الذين عُدِم كسبهم ، وفقدت قوتهم ، وهذا كله قصر نظر ، وضعف إيمان ، وقلة ثقة بوعد الله وكفايته ، ونظر للأمور على حقيقتها .

النوع الثاني : أسباب معنوية ، وهي قوة التوكل على الله في

حصول المطالب الدينية والدنيوية ، وكمال الثقة به ، وقوة التوجه إليه والطلب منه .

وهذه الأمور تقوى جداً من الضعفاء العاجزين الذين ألجأتهم الضرورة إلى أن يعلموا حق العلم : أن كفايتهم ورزقهم ونصرهم من عند الله ، وأنهم في غاية العجز . فانكسرت قلوبهم ، وتوجهت إلى الله ، فأنزل لهم من نصره ورزقه ـ من دفع المكاره ، وجلب المنافع ـ مالا يدركه القادرون . وييسر للقادرين بسببهم من الرزق ما لم يكن لهم فى حساب ؛ فإن الله جعل لكل أحد رزقاً مقدراً .

ـ وقد جعل أرزاق هؤلاء العاجزين على يد القادرين ، وأعان القادرين على ذلك . وخصوصاً من قويت ثقتهم بالله ، واطمأنت نفوسهم لثوابه فإن الله يفتح لهؤلاء من أسباب النصر والرزق ما لم يكن لهم ببال ، ولا دار لهم فى خيال .

فكم من إنسان كان رزقه مقتراً ، فلما كثرت عائلته والمتعلقون به : وسع الله له الرزق من جهات وأسباب شرعية قدرية إلهية .

ومن جهة : وعد الله الذي لا يخلف (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه) ، ومن جهة : دعاء الملائكة كل صباح يوم : « اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكا تلفا » .

ومن جهة : أن أرزاق هؤلاء الضعفاء توجهت إلى من قام بهم . وكانت على يده .

ومن جهة : أن يد المعطى هى العليا من جميع الوجوه.

ومن جهة : أن المعونة من الله تأتى على قدر المؤنة ، وأن البركة تشارك كل ما كان لوجهه ، ومرادا به ثوابه . ولهذا تقول :

ومن جهة: إخلاص العبد لله ، وتقربه إليه بقلبه ولسانه ويده ، كلما أنفق ، توجه إلى الله وتقرب إليه . وما كان له فهو مبارك .

ومن جهة: قوة التوكل ، وثقة المنفق، وطمعه فى فضل الله وبره . والطمع والرجاء من أكبر الأسباب لحصول المطلوب .

ومن جهة : دعاء المستضعفين المنفق عليهم . فإنهم يدعون الله ـ إن قاموا وقعدوا ، وفى كل أحوالهم ـ لمن قام بكفايتهم . والدعاء سبب قوى (٤٠ : ٦٠ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم)

وكل هذا مجرب مشاهد . فتبا للمحرومين ، وما أجل ربح الموفقين . والله أعلم

الحديث السادس والسبعون

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر ، يدخلان الجنة . يقاتل هذا فى سبيل الله ، فيقتل ، ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد ». متفق عليه .

هذا الحديث يدل على تنوع كرم الكريم ، وأن كرمه وفضله متنوع من وجوه لا تعد ولا تحصى ، ولا يدخل فى عقول الخلق وخواطرهم .

فهذان الرجلان اللذان قتل أحدهما الآخر قيض الله لكل منهما من فضله وكرمه سبباً أوصله إلى الجنة .

فالأول : قاتل فى سبيله ، وأكرمه الله على يد الرجر الآخر — الذى لم يسلم بعد — بالشهادة التى هى أعلى المراتب ، بعد مرتبة الصديقين ، وغرضه فى جهاده إعلاء كلمة الله ، والتقرب إلى ربه بذلك . فأجره على الله . وليس له على القاتل حق ، فثبت أجره على الله .

وأما الآخر : فإن الله تعالى جعل باب التوبة مفتوحا لكل من أراد التوبة بالإسلام وما دونه ، ولم يجعل ذنباً من الذنوب مانعاً من قبول التوبة ، كما قال تعالى فى حق التائبين: (٣٩:٥٣ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ؟ إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم) فلما أسلم وتاب محا الله عنه الكفر وآثاره ،

ثم منّ عليه بالشهادة ، فدخل الجنة ، كأخيه الذى قتله وأكرمه على يده ، ولم يهنه على يد أخيه بقتله ، وهو كافر .

فهذا الضحك من البارى يدل على غاية كرمه وجوده ، وتنوع بره وهذا الضحك الوارد فى هذا الحديث وفى غيره من النصوص كغيره من صفات الله . على المؤمن أن يعترف بذلك ويؤمن به ، وأنه حق على حقيقته ، وأن صفاته صفات كمال ، ليس له فيها مثل ، ولا شبه ولا ند .

فكما أن لله ذاتاً لا تشبهها الذوات فله تعالي صفات لا تشبهها الصفات ، وكلها صفات حمد ومجد وتعظيم ، وجلال وجمال وكمال . فنؤمن بما جاء به الكتاب والسنة من صفات ربنا ، ونعلم أنه لا يتم الإيمان والتوحيد إلا بإثباتها على وجه يليق بعظمة الله وكبريائه ومجده .

وهذا الحديث من جملة الأحاديث المرغبة فى الدخول فى الإسلام وفتح أبواب التوبة بكل وسيلة ؛ فإن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ، وما عمله الإنسان فى حال كفره ، وقد أسلم على ما أسلف ، حتى الرقاب التى قتلها نصراً الباطله ، والأموال التى استولى عليها من أجل ذلك . كل ذلك معفو عنه بعد الإسلام .

وقولنا : «من أجل ذلك» احتراز عن الحقوق التى اقتضتها المعاملات بين المسلمين والكفار ؛ فإن الكافر إذا أسلم وعليه حقوق وديون وأعيان أخذها وحصلت له بسبب المعاملة : فإن الإسلام لا يسقطها ؛ لأنها معاملات مشتركة بين الناس : برهم وفاجرهم ، مسلمهم وكافرهم .

بخلاف القسم الأول . فإن كلا من الطرفين ـ المسلمين والكفار ـ إذا حصل الحرب ، وترتب عليه قتل وأخذ مال : لا يرد إلا طوعاً ، وتبرعا ممن وصل إليه . والله أعلم .

ويشبه هذا من بعض الوجوه : قتال أهل البغي لأهل العدل ، حيث لم يضمنهم العلماء ما أتلفوه حال الحرب : من نفوس وأموال للتأويل ، كما أجمع على ذلك الصحابة رضي الله عنهم حين وقعت الفتنة ، فأجمعوا على أن ما تلف من نفوس ، وأتلف من أموال : ليس فيه ضمان من الطرفين .

وفي قوله : « ثم يتوب الله على الآخر فيسلم » دليل على أن توبة الله على من أسلم أو تاب من ذنوبه متقدمة على توبة العبد ؛ فإنه تعالى أذن بتوبته وقدرها ، ولطف به ، إذ قيض له الأسباب الموجبة لتوبته ، فتاب العبد ، ثم تاب الله عليه بعد ذلك ، بأن محا عنه ما سبق من الجرائم ـ الكفر فما دونه ـ فتوبة العبد محفوفة بتوبتين ، تفضل بهما عليه ربه : إذنه له وتقديره وتيسيره للتوبة حتى تاب ، ثم قبول توبته ومحو زلته . فهو تعالى التواب الرحيم .

والتوبة من أجلّ الطاعات وأعظمها . فهذا الحكم ثابت في جميع الطاعات كلها . يوفق الله لها العبد أولا ، وييسر له أسبابها ، ويسهل له طرقها . ثم إذا فعلها المطيع قبلها ، وكتب له بها رضوانه ، وثوابه ، فما أوسع فضل الكريم . وما أعزر كرمه المتنوع العميم . والله أعلم .

الحديث السابع والسبعون

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يتمنين أحدكم الموت لضرر أصابه . فإن كان لا بد فاعلا ، فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لى» .

متفق عليه .

هذا نهى عن تمنى الموت للضر الذى نزل بالعبد : من مرض أو فقر أو خوف ، أو وقوع فى شدة ومهلكة ، أو نحوها من الأشياء . فإن فى تمنى الموت لذلك مفاسد .

منها : أنه يؤذن بالتسخط والتضجر من الحالة التى أصيب بها ، وهو مأمور بالصبر والقيام بوظيفته .

ومعلوم أن تمنى الموت ينافى ذلك .

ومنها : أنه يُضعف النفس ، ويحدث الخَوَر والكسل . ويوقع فى اليأس ، والمطلوب من العبد مقاومة هذه الأمور ، والسعى فى إضعافها وتخفيفها بحسب اقتداره ، وأن يكون معه من قوة القلب وقوة الطمع فى زوال ما نزل به . وذلك موجب لأمرين : اللطف الإلهى لمن أتى بالأسباب المأمور بها ، والسعى النافع الذى يوجبه قوة القلب ورجاؤه .

ومنها . أن تمنى الموت جهل وحمق ؛ فإنه لا يدري ما يكون بعد الموت ، فربما كان كالمستجير من الضر إلى ما هو أفظع منه ، من عذاب البرزخ وأهواله .

ومنها : أن الموت يقطع على العبد الأعمال الصالحة التي هو بصدد فعلها والقيام بها ، وبقية عمر المؤمن لا قيمة له . فكيف يتمنى انقطاع عملٍ ، الذرةُ منه خير من الدنيا وما عليها ؟ .

وأخص من هذا العموم : قيامه بالصبر على الضر الذي أصابه . فإن الله يوفى الصابرين أجرهم بغير حساب .

ولهذا قال فى آخر الحديث : « فإن كان لا بد فاعلا فليقل : اللهم أحيني إذا كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » فيجعل العبد الأمر مفوضاً إلى ربه الذي يعلم ما فيه الخير والصلاح له ، الذي يعلم من مصالح عبده ما لا يعلم العبد ، ويريد له من الخير ما لا يريده ، ويلطف به فى بلائه كما يلطف به فى نعمائه .

والفرق بين هذا وبين قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يقل أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت اللهم ارحمني إن شئت . ولكن ليعزم المسألة ؛ فإن الله لا مكره له » : أن المذكور فى هذا الحديث الذي فيه التعليق بعلم الله وإرادته : هو فى الأمور المعيّنة التى لا يدرى العبد من عاقبتها ومصلحتها .

وأما المذكور فى الحديث الآخر : فهى الأمور التى يعلم مصلحتها بل ضرورتها وحاجة كل عبد إليها . وهى مغفرة الله ورحمته ونحوها . فإن العبد يسألها ويطلبها من ربه طلباً جازماً ، لا معلقاً بالمشيئة وغيرها ؛ لأنه مأمور ومحتم عليه السعى فيها ، وفى جميع ما يتوسل به إليها .

وهذا كالفرق بين فعل الواجبات والمستحبات الثابت الأمر بها؛ فإن العبد يؤمر بفعلها أمر إيجاب أو استحباب، وبعض الأمور المعينة التي لا يدرى العبد من حقيقتها ومصلحتها: فإنه يتوقف حتى يتضح له الأمر فيها.

واستثنى كثير من أهل العلم من هذا: جواز تمنى الموت خوفاً من الفتنة. وجعلوا من هذا قول مريم رضي الله عنها: (١٩ : ٢٣ ياليتنى مِتُّ قبل هذا) كما استثنى بعضهم تمنى الموت شوقاً إلى الله. وجعلوا منه قول يوسف صلى الله عليه وسلم: (١٤ : ١٠١ أنت ولي فى الدنيا والآخرة، توفنى مسلماً، وألحقنى بالصالحين).

وفى هذا نظر؛ فإن يوسف صلى الله عليه وسلم لم يتمن الموت. وإنما سأل الله الثبات على الإسلام، حتى يتوفاه مسلماً، كما يسأل العبد ربه حسن الخاتمة. والله أعلم.

الحديث الثامن والسبعون

عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الدنيا حلوة خضرة . وإن الله مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ؛ فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » .

رواه مسلم .

أخبر صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث بحال الدنيا وما هى عليه من الوصف الذى يروق الناظرين والذائقين . ثم أخبر أن الله جعلها محنة وابتلاء للعباد . ثم أمر بفعل الأسباب ، التى تقى من الوقوع فى فتنتها .

فإخباره بأنها حلوة خضرة يعم أوصافها التى هى عليها . فهى حلوة فى مذاقها وطعمها ، ولذاتها وشهواتها ، خضرة فى رونقها وحسنها الظاهر ، كما قال تعالى : (٣ : ١٤ زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسوّمة والأنعام والحرث) وقال تعالى : (١٨ : ٧ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ؛ لنبلوهم أيهم أحسن عملا) .

فهذه اللذات المنوعة فيها ، والمناظر البهيجة ، جعلها الله ابتلاء منه وامتحانا ، واستخلف فيها العباد لينظر كيف يعملون ؟

فمن تناولها من حلها ، ووضعها فى حقها ، واستعان بها على ماخلق

له من القيام بعبودية الله : كانت زاداً له وراحلة إلى دار أشرف منها وأبقى ، وتمت له السعادة الدنيوية والأخروية .

ومن جعلها أكبر همّه ، وغاية علمه ومراده : لم يؤتَ منها إلا ما كتب له . وكان مآله بعد ذلك إلى الشقاء ، ولم يهنأ بلذاتها ولا شهواتها إلا مدة قليلة . فكانت لذاته قليلة . وأحزانه طويلة .

وكل نوع من لذاتها فيه هذه الفتنة والاختبار . ولكن أبلغ ما يكون وأشد فتنة : النساء ؛ فإن فتنتهن عظيمة ، والوقوع فيها خطير وضررها كبير ؛ فإنهن مصائد الشيطان وحبائله ، كم صاد بهن من مُعافًى فأصبح أسير شهوته ، رهين ذنبه ، قد عَزّ عليه الخلاص ، والذنب ذنبه فإنه الذى لم يحترز من هـذه البلية ، وإلا فلو تحرز منها ، ولم يدخل مداخل التهم ، ولا تعرض للبلاء ، واستعان باعتصامه بالمولى ، لنجا من هذه الفتنة ، وخلص من هذه المحنة .

ولهذا حذر النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث منها على الخصوص . وأخبر بما جرَّت على من قبلنا من الأمم ؛ فإن فى ذلك عبرة للمعتبرين ، وموعظةَ للمتقين . والله أعلم .

الحديث التاسع والسبعون

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الإيمان : بضع وسبعون ـ أو بضع وستون ـ شُعبة ، أعلاها : قول : لا إلٰه إلا الله . وأدناها : إماطة الأَذى عن الطريق . والحياء شعبة من الإيمان » .

متفق عليه .

هذا الحديث من جملة المنصوص الدالة على أن الإيمان اسم يشمل عقائد القلب وأعماله ، وأعمال الجوارح ، وأقوال اللسان فكل ما يقرب إلى الله ، وما يحبه ويرضاه ، من واجب ومستحب فإنه داخل في الإيمان . وذكر هنا أعلاه وأدناه ، وما بين ذلك وهو الحياء ولعل ذكر الحياء ، لأَنه السبب الأقوى للقيام بجميع شعب الإيمان . فإن من استحيا من الله لتواتر نعمه ، وسوابغ كرمه ، وتجليه عليه بأسمائه الحسنى ، والعبد ـ مع هذا كثير التقصير مع هذا الرب الجليل الكبير يظلم نفسه ويجنى عليها ـ أوجب له هذا الحياء التوقّي من الجرائم ، والقيام بالواجبات والمستحبات .

فأعلى هذه الشعب وأصلها وأساسها : قول : « لا إلٰه إلا الله » صادقا من قلبه بحيث يعلم ويوقن أنه لا يستحق هذا الوصف العظيم ، وهو الأُلوهية إلا الله وحده ، فإنه هو ربه الذي يربيه ويربي جميع العالمين بفضله وإحسانه . والكل فقير وهو الغني والكل عاجز وهو

القوى ثم يقوم في كل أحواله بعبوديته لربه، مخلصاً له الدين؛ فإن جميع شعب الإيمان فروع وثمرات لهذا الأصل.

ودل على أن شعب الإيمان بعضها يرجع إلى الإخلاص للمعبود الحق، وبعضها يرجع إلى الإحسان إلى الخلق.

ونبه بإماطة الأذى على جميع أنواع الإحسان القولي والفعلي. الإحسان الذي فيه وصول المنافع، والإحسان الذي فيه دفع المضار عن الخلق.

وإذا علمنا أن شعب الإيمان كلها ترجع إلى هذه الأمور: علمنا أن كل خصلة من خصال الخير فهي من الشعب. وقد تكلم العلماء على تعيينها.

فمنهم: من وصل إلى هذا المبلغ المقدر في الحديث.

ومنهم: من قارب ذلك، ولكن إذا فهم المعنى تمكن الإنسان أن يعتد بكل خصلة وردت عن الشارع ـ قولية أو فعلية، ظاهرة أو باطنة ـ من الشعب. ونصيب العبد من الإيمان بقدر نصيبه من هذه الخصال، قلة وكثرة، وقوة وضعفاً، وتكميلا وضده. وهي ترجع إلى تصديق خبر الله وخبر رسوله، وامتثال أمرهما، واجتناب نهيهما.

وقد وصف الله الإيمان بالشجرة الطيبة في أصلها وثمراتها، التي أصلها ثابت، وفروعها باسقة في السماء. تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها. ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون. والله أعلم

الحديث الثمانون

عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامنكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه تَرْجمان فينظر أيمن منه ، فلا يرى إلا ما قدم . وينظر أشأم منه ، فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تِلقَاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بِشِقٍّ تمرة . فمن لم يجد فبكلمة طيبة » .

متفق عليه .

هذا حديث عظيم . تضمن من عظمة الباري مالا تحيط به العقول ولا تعبر عنه الألسن .

أخبر صلى الله عليه وسلم فيه : أن جميع الخلق سيكلمهم الله مباشرة من دون ترجمان ولا واسطة . ويسألهم عن جميع أعمالهم : خيرها وشرها ، دقيقها وجليلها ، سابقها ولاحقها ، ما علمه العباد وما نسوه منها . وذلك أنه لعظمته وكبريائه كما يخلقهم ويرزقهم فى ساعة واحدة ، ويبعثهم فى ساعة واحدة فإنه يحاسبهم جميعهم فى ساعة واحدة . فتبارك من له العظمة والمجد ، والملك العظيم والجلال .

وفى هذه الحالة التى يحاسبهم فيها ليس مع العبد أنصار ولاأعوان ولا أولاد ولا أموال . قد جاءه فرداً كما خلقه أول مرة . قد أحاطت به أعماله تطلب الجزاء بالخير أو الشر ، عن يمينه وشماله ، وأمامه النار لا بد له من ورودها . فهل إلى صدوره منها سبيل ؟ لا سبيل إلى ذلك إلا برحمة الله ، وبما قدمت يداه من الأعمال المنجية منها .

ولهذا حث النبي صلى الله عليه وسلم أمته على اتقاء النار ولو بالشيء اليسير، كشق تمرة. فمن لم يجد فبكلمة طيبة.

وفي هذا الحديث: أن من أعظم المنجيات من النار: الإحسان إلى الخلق بالمال والأقوال، وأن العبد لا ينبغي له أن يحتقر من المعروف ولو شيئاً قليلا، والكلمة الطيبة تشمل النصيحة للخلق بتعليمهم ما يجهلون، وإرشادهم إلى مصالحهم الدينية والدنيوية.

وتشمل الكلام المسر للقلوب، الشارح للصدور، المقارن للبشاشة والبشر.

وتشمل الذكر لله والثناء عليه، وذكر أحكامه وشرائعه.

فكل كلام يقرب إلى الله ويحصل به النفع لعباد الله. فهو داخل في الكلمة الطيبة. قال تعالى: (٣٥ : ١٠ إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه) وقال تعالى: (١٨ : ٤٦ والباقيات الصالحات — وهي كل عمل وقول يقرب إلى الله، ويحصل به النفع لخلقه — خير عند ربك ثواباً وخير أملا). والله أعلم.

الحديث الحادى والثمانون

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «دعونى ما تركتكم ؛ فإنما أهلك من كان قبلكم كثرةُ سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم . فإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم » .

متفق عليه .

هذه الأسئلة التى نهى النبى صلى الله عليه وسلم عنها : هى التى نهى الله عنها فى قوله : (١٠١:٥ يا أيها الذين آمنوا ، لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكم) وهى الأسئلة عن أشياء من أمور الغيب ، أومن الأمور التى عفا الله عنها ، فلم يحرمها ولم يوجبها . فيسأل السائل عنها وقت نزول الوحى والتشريع . فربما وجبت بسبب السؤال . وربما حرمت كذلك . فيدخل السائل فى قوله صلى الله عليه وسلم : « أعظم المسلمين جرما : من سأل عن شىء لم يحرم ، فحرم من أجل مسألته » .

وكذلك ينهى العبد عن سؤال التعنت والأغلوطات ، وينهى أيضاً عن أن يسأل عن الأمور الطفيفة غير المهمة . ويدع السؤال عن الامور المهمة . فهذه الأسئلة وما أشبهها هى التى نهى الشارع عنها .

وأما السؤال على وجه الاسترشاد عن المسائل الدينية من أصول وفروع ، عبادات أو معاملات : فهى مما أمر الله بها ورسوله ، ومما

حث عليها . وهى الوسيلة لتعلم العلوم ، وإدراك الحقائق ، قال تعالى : (٢١ : ٧ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) وقال : (٤٣ : ٤٥ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا : أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟) إلى غيرها من الآيات . وقال صلى الله عليه وسلم : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » وذلك بسلوك طريق التفقه فى الدين دراسة وتعلما وسؤالا ، وقال : « ألا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العِىِّ السؤال » .

وقد أمر الله بالرفق بالسائل ، وإعطائه مطلوبه ، وعدم التضجر منه . وقال فى سورة الضحى : (وأما السائل فلا تنهر) .

فهذا يشمل السائل عن العلوم النافعة والسائل لما يحتاجه من أمور الدنيا : من مال وغيره .

ومما يدخل فى هذا الحديث : السؤال عن كيفية صفات البارى ؛ فإن الأمر فى الصفات كلها كما قال الإمام مالك لمن سأله عن كيفية الاستواء على العرش ؟ فقال :

« الاستواء معلوم . والكيف مجهول . والإيمان به واجب . والسؤال عنه بدعة » .

فمن سأل عن كيفية علم الله ، أو كيفية خلقه وتدبيره ، قيل له : فكما أن ذات الله تعالى لا تشبهها الذوات ، فصفاته لا تشبهها الصفات ، فالخلق يعرفون الله ، ويعرفون ما تعرف لهم به : من صفاته وأفعاله .

وأما كيفية ذلك فلا يعلم تأويله إلا الله

ثم ذكر صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث أصلين عظيمين :

أحدهما : قوله صلى الله عليه وسلم : « فإذا نهيتكم عنه فاجتنبوه » فكل ما نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأفعال ، الظاهرة والباطنة : وجب تركه ، والكف عنه ؛ امتثالا وطاعة لله ورسوله .

ولم يقل فى النهى: هو كف النفس، وهو مقدور لكل أحد، فكل أحد يقدر على ترك جميع ما نهى الله عنه ورسوله. ولم يضطر العباد إلى شيء من المحرمات المطلقة ؛ فإن الحلال واسع ، يسع جميع الخلق فى عباداتهم ومعاملاتهم ، وجميع تصرفاتهم .

وأما إباحة الميتة والدم ولحم الخنزير للمضطر : فإنه فى هذه الحالة الملجئة إليه قد صار من جنس الحلال ؛ فإن الضرورات تبيح المحظورات ، فتصيرها الضرورة مباحة ؛ لأنه تعالى إنما حرم المحرمات حفظاً لعباده ، وصيانة لهم عن الشرور والمفاسد، ومصلحة لهم فإذا قاوم ذلك مصلحة أعظم ـ وهو بقاء النفس ـ قدمت هذه على تلك رحمة من الله وإحسانا .

وليست الأدوية من هذا الباب ، فإن الدواء لا يدخل فى باب الضرورات ، فإن الله تعالى يشفى المبتلى بأسباب متنوعة ، لا تتعين فى فى الدواء . وإن كان الدواء يغلب على الظن الشفاء به : فإنه لا يحل

التداوى بالمحرمات، كالخمر وألبان الحمر الأهلية، وأصناف المحرمات، بخلاف المضطر إلى أكل الميتة، فإنه يتيقن أنه إذا لم يأكل منها يموت.

الأصل الثانى: قوله صلى الله عليه وسلم: « وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم » وهذا أصل كبير، دل عليه أيضاً قوله تعالى:(٦٤ : ١٦ فاتقوا الله ما استطعتم).

فأوامر الشريعة كلها معلقة بقدرة العبد واستطاعته، فإذا لم يقدر على واجب من الواجبات بالكلية: سقط عنه وجوبه. وإذا قدر على بعضه ـ وذلك البعض عبادة ـ: وجب ما يقدر عليه منه، وسقط عنه ما يعجز عنه.

ويدخل فى هذا من مسائل الفقه والأحكام ما لا يعد ولا يحصى. فيصلى المريض قائماً، فإن لم يستطع صلى قاعداً، فإن لم يستطع صلى على جنبه. فإن لم يستطع الإيماء برأسه أومأ بطرفه. ويصوم العبد ما دام قادراً عليه. فإن أعجزه مرض لا يُرجى زواله: أطعم عنه كل يوم مسكين. وإن كان مرضاً يرجى زواله: أفطر، وقضى عدته من أيام أخر.

ومن ذلك: من عجز عن سترة الصلاة الواجبة، أو عن الاستقبال، أو توقِّى النجاسة: سقط عنه ما عجز عنه. وكذلك بقية شروط الصلاة وأركانها، وشروط الطهارة.

ومن تعذرت عليه الطهارة بالماء للعدم، أو للضرر فى جميع الطهارة، أو بعضها: عدل إلى طهارة التيمم.

والمعضوب فى الحج : عليه أن يستنيب من يحج عنه ، إذا كان قادراً على ذلك بماله .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : يجب على من قدر عليه باليد ، ثم باللسان ، ثم بالقلب .

وليس على الأعمى والأعرج والمريض حرج فى ترك العبادات التى يعجزون عنها ، أو تشق عليهم مشقة غير محتملة .

ومن عليه نفقة واجبة ، وعجز عن جميعها : بدأ بزوجته ، فرقيقه ، فالولد ، فالوالدين ، فالأقرب ثم الأقرب . وكذلك الفطرة .

وهكذا جميع ما أمر به العبد أمر إيجاب أو استحباب ، إذا قدر على بعضه ، وعجز عن باقيه : وجب عليه ما يقدر عليه ، وسقط عنه ما عجز عنه . وكلها داخلة فى هذا الحديث .

ومسائل القرعة لها دخول فى هذا الأصل ؛ لأن الأمور إذا اشتبهت : لمن هى ، ومن أحق بها ؟ رجعنا إلى المرجحات . فإن تعذر الترجيح من كل وجه : سقط هذا الواجب للعجز عنه ، وعدل إلى القرعة التى هى غاية ما يمكن . وهى مسائل كثيرة معروفة فى كتب الفقه .

والولايات كلها — صغارها وكبارها — تدخل تحت هذا الأصل ؛ فإن كل ولاية يجب فيها تولية المتصف بالأوصاف التى يحصل بها مقصود الولاية . فإن تعذرت كلها : وجب فيها تولية الأمثل فالأمثل .

وكما يستدل على هذا الأصل بتلك الآية وذلك الحديث ، فإنه

يستدل عليها بالآيات والأحاديث التي نفى الله ورسوله فيها الحرج عن الأمة ، كقوله تعالى: (٢ : ٢٨٤ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) ، (٦٥: ٦ ولينفق ذو سعة من سعته . ومن قُدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) ، (٢٢ : ٧٨ ما جعل عليكم فى الدين من حرج) ، (٥ :٦ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) ، (٢ : ١٨٥ يريد الله بكم اليسر ولا يريد العسر) (٤ : ٢٨ يريد الله أن يخفف عنكم) .

فالتخفيفات الشرعية فى العبادات وغيرها بجميع أنواعها داخلة فى هذا الأصل ، مع ما يستدل على هذا بما لله تعالى من الأسماء والصفات المقتضية لذلك ، كالحمد والحكمة ، والرحمة الواسعة ، والالطف والكرم والامتنان . فإن آثار هذه الأسماء الجليلة الجميلة كما هى سابغة وافرة واسعة فى المخلوقات والتدبيرات ، فهى كذلك فى الشرائع ، بل أعظم ؛ لأنها هى الغاية فى الخلق . وهى الوسيلة العظمى للسعادة الأبدية .

فالله تعالى خلق المكلفين ليقوموا بعبوديته . وجعل عبوديته والقيام بشرعه طريقاً إلى نيل رضاه وكرامته . كما قال تعالى ـ بعد ماشرع الطهارة بأنواعها ـ (٥ : ٦ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم ؛ لعلكم تشكرون) .

فظهرت آثار رحمته ونعمته فى الشرعيات والمباحات ، كما ظهرت فى الموجودات . فله تعالى أتم الحمد وأعلاه ، وأوفر الشكر والثناء وأغلاه ، وغاية الحب والتعظيم ومنتهاه . وبالله التوفيق

الحديث الثانى والثمانون

عن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لا يرحم الناس : لا يرحمه الله » .

متفق عليه .

يدل هذا الحديث بمنطوقه على أن من لا يرحم الناس لا يرحمه الله ، وبمفهومه على أن من يرحم الناس يرحمه الله ، كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث الآخر : « الراحمون يرحمهم الرحمٰن . ارحموا من فى الأرض ؛ يرحمكم من فى السماء » .

فرحمة العبد للخلق من أكبر الأسباب التى تنال بها رحمة الله ، التى من آثارها خيرات الدنيا ، وخيرات الآخرة ، وفقدها من أكبر القواطع والموانع لرحمة الله ، والعبد فى غاية الضرورة والافتقار إلى رحمة الله ، لا يستغنى عنها طرفة عين ، وكل ماهو فيه من النعم واندفاع النقم : من رحمة الله .

فمتى أراد أن يستبقيها ويستزيد منها ، فليعمل جميع الأسباب التى تنال بها رحمته ، وتجتمع كلها فى قوله تعالى : (٧ : ٥٦ إن رحمة الله قريب من المحسنين) وهم المحسنون فى عبادة الله ، المحسنون إلى عباد الله . والإحسان إلى الخلق أثر من آثار رحمة العبد بهم .

والرحمة التى يتصف بها العبد نوعان :

النوع الأول : رحمة غريزية ، قد جبل الله بعض العباد عليها ،

وجعل فى قلوبهم الرأفة والرحمة والحنان على الخلق ، ففعلوا بمقتضى هذه الرحمة جميع ما يقدرون عليه من نفعهم ، بحسب استطاعتهم . فهم محمودون مثابون على ما قاموا به ، معذورون على ما عجزوا عنه ، وربما كتب الله لهم بنياتهم الصادقة ما عجزت عنه قواهم .

والنوع الثانى : رحمة يكتسبها العبد بسلوكه كل طريق ووسيلة ، تجعل قلبه على هذا الوصف ، فيعلم العبد أن هذا الوصف من أجلّ مكارم الأخلاق وأكملها ، فيجاهد نفسه على الاتصاف به ، ويعلم ما رتب الله عليه من الثواب ، وما فى فوته من حرمان الثواب ؛ فيرغب فى فضل ربه ، ويسعى بالسبب الذى ينال به ذلك ويعلم أن الجزاء من جنس العمل . ويعلم أن الاخوة الدينية والمحبة الإيمانية ، قد عقدها الله وربطها بين المؤمنين ، وأمرهم أن يكونوا إخوانا متحابين ، وأن ينبذوا كل ما ينافى ذلك : من البغضاء ، والعداوات ، والتدابر .

فلا يزال العبد يتعرف الأسباب التى يدرك بها هذا الوصف الجليل ويجتهد فى التحقق به ، حتى يمتلىء قلبه من الرحمة ، والحنان على الخلق . ويا حبذا هذا الخلق الفاضل ، والوصف الجليل الكامل .

وهذه الرحمة التى فى القلوب ، تظهر آثارها على الجوارح واللسان : فى السعى فى إيصال البر والخير والمنافع إلى الناس ، وإزالة الأضرار والمكاره عنهم .

وعلامة الرحمة الموجودة فى قلب العبد : أن يكون محبا لوصول

الخير لكافة الخلق عموماً ، وللمؤمنين خصوصاً ، كارهاً حصول الشر والضرر عليهم . فبقدر هذه المحبة والكراهة تكون رحمته .

ومن أصيب حبيبه بموت أو غيره من المصائب ، فإن كان حزنه عليه لرحمة : فهو محمود ، ولا ينافى الصبر والرضى ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لما بكى لموت ولد ابنته، قال له سعد : «ماهذا يارسول الله ؟» فأتبع ذلك بعبرة أخرى، وقال: « هذه رحمة يجعلها الله فى قلوب عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » وقال عند موت ابنه إبراهيم : « القلب يحزن ، والعين تدمع ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا . وإنّا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون » .

وكذلك رحمة الأطفال الصغار والرقة عليهم ، وإدخال السرور عليهم من الرحمة ، وأما عدم المبالاة بهم ، وعدم الرقة عليهم : فمن الجفاء والغلظة والقسوة ، كما قال بعض جُفاة الأعراب حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يقبلون أولادهم الصغار ، فقال ذلك الأعرابى : إنّ لى عشرة من الولد ماقبلت واحداً منهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أو أملك لك شيئاً أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟ » .

ومن الرحمة : رحمة المرأة البغى حين سقت الكلب ، الذى كاد يأكل الثرى من العطش . فغفر الله لها بسبب تلك الرحمة .

وضدها : تعذيب المرأة التى ربطت الهرة ، لا هى أطعمتها وسقتها ، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض ، حتى ماتت .

ومن ذلك ما هو مشاهد مجرب : أن من أحسن إلى بهائمه بالإطعام والسقى والملاحظة النافعة : أن الله يبارك له فيها . ومن أساء إليها : عوقب فى الدنيا قبل الآخرة ، وقال تعالى (٥:٥٤ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل : أنه من قتل نفساً بغير نفس ، أو فساد فى الأرض : فكأنما قتل الناس جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً) وذلك لما فى قلب الأول من القسوة والغلظة والشر ، وما فى قلب الآخر من الرحمة والرقة والرأفة ؛ إذ هو بصدد إحياء كل من له قدرة على إحيائه من الناس ، كما أن ما فى قلب الأول من القسوة ، مستعد لقتل النفوس كلها .

فنسأل الله أن يجعل فى قلوبنا رحمة توجب لنا سلوك كل باب من أبواب رحمة الله ، ونحنوا بها على جميع خلق الله ، وأن يجعلها موصلة لنا إلى رحمته وكرامته ، إنه جواد كريم .

الحديث الثالث والثمانون

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحبَّ أن يُبسط له في رزقه ، ويُنسأ له في أثَره ، فليَصِلْ رحمه » .

متفق عليه .

هذا الحديث فيه : الحث على صلة الرحم ، وبيان أنها كما أنها موجبة لرضى الله وثوابه في الآخرة ، فإنها موجبة للثواب العاجل ، بحصول أحب الأمور للعبد ، وأنها سبب لبسط الرزق وتوسيعه . وسبب لطول العمر . وذلك حق على حقيقته ؛ فإنه تعالى هو الخالق للأسباب ومسبباتها .

وقد جعل الله لكل مطلوب سبباً وطريقاً يُنال به . وهذا جار على الأصل الكبير ، وأنه من حكمته وحمده : جعل الجزاء من جنس العمل ، فكما وصل رحمه بالبر والإحسان المتنوع ، وأدخل على قلوبهم السرور : وصل الله عمره ، ووصل رزقه ، وفتح له من أبواب الرزق وبركاته ، مالا يحصل له بدون هذا السبب الجليل .

وكما أن الصحة وطيب الهواء وطيب الغذاء ، واستعمال الأمور المقوية للأبدان والقلوب ، من أسباب طول العمر . فكذلك صلة الرحم : جعلها الله سبباً ربانياً ، فإن الأسباب التي تحصل بها المحبوبات الدنيوية قسمان : أمور محسوسة ، تدخل في إدراك الحواس ، ومدارك

العقول . وأمور ربانية إلٰهية قَدَّرها مَنْ هو على كل شيء قدير ، ومَنْ جميع الأسباب وأمور العالم منقادة لمشيئته ، ومَنْ تكفل بالكفاية للمتوكلين ، ووعد بالرزق والخروج من المضائق ، للمتقين . قال تعالى : (٦٥ : ٣ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب . ومن يتوكل على الله فهو حسبه) .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول . « ما نقصت صدقة من مال » بل تزيده . فكيف بالصدقة والهدية على أقاربه وأرحامه ؟

وفي هذا الحديث دليل : على أن قصد العامل ، ما يترتب على عمله من ثواب الدنيا لا يضره إذا كان القصد وجه الله والدار الآخرة . فإن الله بحكمته ورحمته رتب الثواب العاجل والآجل . ووعد بذلك العاملين ؛ لأن الأمل واستثمار ذلك ينشط العاملين ، ويبعث هممهم على الخير . كما أن الوعيد على الجرائم ، وذكر عقوباتها مما يخوف الله به عباده ويبعثهم على ترك الذنوب والجرائم .

فالمؤمن الصادق يكون في فعله وتركه مخلصاً لله ، مستعيناً بما في الأعمال من الرغبات المتنوعة على هذا المقصد الأعلى . والله الموفق .

الحديث الرابع والثمانون

عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » .

متفق عليه .

هذا الحديث فيه : الحث على قوة محبة الرسل ، واتباعهم بحسب مراتبهم ، والتحذير من محبة ضدهم ؛ فإن المحبة دليل على قوة اتصال المحب بمن يحبه ، ومناسبته لأخلاقه ، واقتدائه به . فهى دليل على وجود ذلك . وهى أيضاً باعثة على ذلك .

وأيضاً من أحب لله تعالى ، فإن نفس محبته من أعظم ما يقربه إلى الله ؛ فإن الله تعالى شكور ، يعطى المتقرب أعظم ـ بأضعاف مضاعفة ـ مما بذل . ومن شكره تعالى : أن يلحقه بمن أحب ، وإن قصر عمله . قال تعالى : (٤ : ٦٩ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً) .

ولهذا قال أنس: « ما فرحنا بشىء فرحنا بقوله صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب . قال : فأنا أحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبا بكر ، وعمر ، فأرجو أن أكون معهم » .

وقال تعالى : (١٣ : ٢٣ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم

وأزواجهم وذرياتهم) وقال سبحانه : (٥٢ : ٢١ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شيء) وهذا مشاهد مجرب إذا أحب العبد أهل الخير رأيته منضما إليهم ، حريصا على أن يكون مثلهم . وإذا أحب أهل الشر انضم إليهم ، وعمل بأعمالهم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل » ، « ومثل الجليس الصالح ، كحامل المسك : إما أن يحذيك وإما أن يبيعك ، وإما أن تجد منه رائحة طيبة ، ومثل الجليس السوء كنافخ الكير : إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه رائحة خبيثة » .

وإذا كان هذا في محبة الخلق فيما بينهم ، فكيف بمن أحب الله ، وقدم محبته وخشيته على كل شيء ؟ فإنه مع الله ، وقد حصل له القرب الكامل منه . وهو قرب المحبين ، وكان الله معه . و(إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)

وأعلى أنواع الإحسان محبة الرحيم الكريم الرحمن ، محبة مقرونة بمعرفته .

فنسأل الله أن يرزقنا حبه ، وحب من يحبه ، وحب العمل الذي يقرب إلى حبه ؛ إنه جواد كريم . وبالله التوفيق .

الحديث الخامس والثمانون

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر : كبر ثلاثا ، ثم قال : سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مُقْرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون. اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البِرّ والتقوى ، ومن العمل ما ترضى . اللهم هَوِّن علينا سفرنا هذا ، واطوِ عَنَّا بُعده . اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل . اللهم إنى أعوذ بك من وَعْثاء السفر ، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب ، فى المال والأهل والولد . وإذا رجع قالهن ، وزاد فيهن : آيبون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون » .

رواه مسلم .

هذا الحديث فيه فوائد عظيمة تتعلق بالسفر .

وقد اشتملت هذه الأدعية على طلب مصالح الدين ـ التى هى أم الأمور ـ ومصالح الدنيا ، وعلى حصول المحاب ، ودفع المكاره والمضار وعلى شكر نعم الله ، والتذكر لآلائه وكرمه ، واشتمال السفر على طاعة الله ، وما يقرب إليه .

فقوله : « كان إذا استوى علي راحلته خارجاً إلى سفر : كبر ثلاثا » هو افتتاح لسفره بتكبير الله ، والثناء عليه ، كما كان يختم بذلك

وقوله صلى الله عليه وسلم : «سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون » فيه : الثناء على الله بتسخيره

للمركوبات ، التى تحمل الأثقال والنفوس إلى البلاد النائية ، والأقطار الشاسعة ، واعتراف بنعمة الله بالمركوبات .

وهذا يدخل فيه المركوبات : من الإبل ، ومن السفن البحرية ، والبرية ، والهوائية . فكلها تدخل فى هذا .

ولهذا قال نوح صلى الله عليه وسلم للراكبين معه فى السفينة : (١١ : ٤١ اركبوا فيها بسم الله مَجريها ومُرْساها) .

فهذه المراكب ، كلها وأسبابها ، وما به تتم وتكمل : كله من نعم الله وتسخيره . يجب على العباد الاعتراف لله بنعمته فيها ، وخصوصاً وقت مباشرتها .

وفيه : تذكر الحالة التى لولا البارى لما حصلت وذللت فى قوله : « وما كنا له مقرنين » أى : مطيقين ، لو رَدَّ الأمر إلى حولنا وقوتنا ، لكنا أضعف شىء علماً ، وقدرة وإرادة ، ولكنه تعالى سخر الحيوانات وعلّم الإنسان صنعة المركوبات ، كما امتن الله فى تيسير صناعة الدروع الواقية فى قوله : (٢١ : ٨٠ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ؟) .

فعلى الخلق أن يشكروا الله ، إذ علمهم صناعة اللباس الساتر للعورات ، ولباس الرياش ، ولباس الحرب وآلات الحرب . وعلمهم صنعة الفلك البحرية والبرية والهوائية ، وصنعة كل ما يحتاجون إلى الانتفاع به ، وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس متنوعة . ولكن أكثر

الخلق فى غفلة عن شكر الله ، بل فى عتو واستكبار على الله ، وتجبر بهذه النعم على العباد .

وفى هذا الحديث : التذكر بسفر الدنيا الحِسّى لسفر الآخرة المعنوي ؛ لقوله : « وإنا إلى ربنا لمنقلبون » فكما بدأ الخلق فهو يعيدهم ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

وقوله : « اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى » .

سأل الله : أن يكون السفر موصوفا بهذا الوصف الجليل ، محتويا على أعمال البر كلها المتعلقة بحق الله والمتعلقة بحقوق الخلق ، وعلى التقوى التى هى اتقاء سخط الله ، بترك جميع ما يكرهه الله من الأعمال ، والأقوال ، الظاهرة والباطنة ، كما سأله العمل بما يرضاه الله .

وهذا يشمل جميع الطاعات والقربات . ومتى كان السفر على هذا الوصف : فهو السفر الرابح . وهو السفر المبارك .

وقد كانت أسفاره صلى الله عليه وسلم كلها محتوية لهذه المعانى الجليلة .

ثم سأل الله الإعانة ، وتهوين مشاق السفر ، فقال : « اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطوعنا بعده » لأن السفر قطعة من العذاب . فسأل تهوينه ، وطَىَّ بعيده . وذلك بتخفيف الهموم والمشاق ، وبالبركة فى السير ، حتى يقطع المسافات البعيدة ، وهو غير مكترث . ويقيّض له

من الأسباب المريحة فى السفر أموراً كثيرة ، مثل راحة القلب ، ومناسبة الرفقة ، وتيسير السير ، وأمن الطريق من المخاوف ، وغير ذلك من الأسباب .

فكم من سفر امتد أياما كثيرة ، لكن الله هونه ، ويسره على أهله . وكم من سفر قصير صار أصعب من كل صعب . فما ثمّ إلا تيسير الله ولطفه ومعونته .

ولهذا قال فى تحقيق تهوين السفر : « اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر » أي: مشقته وصعوبته « وكآبة المنظر » أي: الحزن الملازم والهم الدائم « وسوء المنقلب ، فى المال والأهل والولد » أي : يارب نسألك أن تحفظ علينا كل ما خلفناه وراءنا ، وفارقناه بسفرنا : من أهل وولد ومال ، وأن تنقلب إليهم مسرورين بالسلامة ، والنعم المتواترة علينا وعليهم ؛ فبذلك تتم النعمة ، ويكمل السرور .

وكذلك يقول هذا فى رجوعه ، وعوده من سفره . ويزيد : « آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون » أي : نسألك اللهم : أن تجعلنا فى إيابنا ورجوعنا ملازمين للتوبة لك ، وعبادتك وحمدك ، وأن تختم سفرنا بطاعتك ، كما ابتدأته بالتوفيق لها .

ولهذا قال تعالى : (١٧ : ٨٠ وقل : رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق ، واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) .

ومدخل الصدق ومخرجه : أن تكون أسفار العبد ومداخله

ومخارجه كلها تحتوى على الصدق والحق ، والاشتغال بما يحبه الله ، مقرونة بالتوكل على الله ، ومصحوبة بمعونته .

وفيه : الاعتراف بنعمته آخراً ، كما اعترف بها أولا ، فى قوله : « لربنا حامدون » .

فكما أن على العبد أن يحمد الله على التوفيق لفعل العبادة والشروع فى الحاجة : فعليه أن يحمد الله على تكميلها وتمامها ، والفراغ منها ؛ فإن الفضل فضله ، والخير خيره ، والأسباب أسبابه . والله ذو الفضل العظيم

الحديث السادس والثمانون

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خذوا عنى مناسككم » .

رواه أحمد ومسلم والنسائى .

هذا كلام جامع . استدل به أهل العلم على مشروعية جميع ما فعله النبى صلى الله عليه وسلم ، وما قاله فى حجه وجوباً فى الواجبات ، ومستحبا فى المستحبات وهو نظير قوله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » فكما أن ذلك يشمل جزئيات الصلاة كلها . فهذا يشمل جزئيات المناسك كلها .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام حسن جداً فى خلاصة حج النبى صلى الله عليه وسلم . ذكره فى القواعد النورانية . فقال قدس الله روحه ورضى عنه .

وقد ثبت بالنقل المتواتر عند الخاصة من علماء الحديث من وجوه كثيرة فى الصحيحين وغيرهما : أنه صلى الله عليه وسلم لما حج حجة الوداع أحرم هو والمسلمون من ذى الحليفة . فقال : « من شاء أن يهل بعمرة فليفعل . ومن شاء أن يهل بحجة فليفعل . ومن شاء أن يهل بعمرة وحجة فليفعل » فلما قدموا وطافوا بالبيت وبين الصفا والمروة أمر جميع المسلمين الذين حجوا معه أن يحلوا من إحرامهم ويجعلوها عمرة ،

إلا من ساق الهدى، فإنه لا يُحل حتى يَبْلغ الهديُ مَحِلَّه، فراجعه بعضهم في ذلك. فغضب، وقال: «انظروا ما أمرتكم به فافعلوه». وكان هو صلى الله عليه وسلم قد ساق الهدى، فلم يحل من إحرامه. ولما رأى كراهة بعضهم للإحلال قال: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لما سقت الهدى. ولجعلتها عمرة، ولولا أن معي الهدى لأحللت».
وقال أيضا: «إنى لَبَّدْتُ رأسى وقلدت هدىي، فلا أحل حتى أنحر».
فحل المسلمون جميعهم إلا النفر الذين ساقوا الهدى، منهم: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى بن أبى طالب، وطلحة بن عبيد الله. فلما كان يوم التروية أحرم المحلون بالحج، وهم ذاهبون إلى منى. فبات بهم تلك الليلة بمنى. وصلى بهم فيها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر. ثم سار إلى بهم إلى نمرة، على طريق ضَبٍّ، ونمرة خارجة عن عرفة، من يمانيها وغربيها، ليست من الحرم، ولا من عرفة. فنصبت له القبة بنمرة. وهناك كان ينزل خلفاؤه الراشدون بعده، وبها الأسواق، وقضاء الحاجة، والأكل، ونحو ذلك. فلما زالت الشمس ركب هو ومن ركب معه وسار المسلمون إلى المصلى ببطن عُرَنَة، حيث قد بنى للمسجد وليس هو من الحرم، ولا من عَرَفَة. وإنما هو برزخ بين المشعرين: الحلال والحرام هناك، بينه وبين الموقف نحو ميل. فخطب فيهم خطبة الحج على راحلته. وكان يوم الجمعة، ثم نزل فصلى بهم الظهر والعصر مقصورتين مجموعتين. ثم سار ـ والمسلمون معه ـ إلى الموقف بعرفة

عند الجبل المعروف بجبل الرحمة . واسمه «إلال» على وزن هلال . وهو الذي تسميه العامة عرفة . فلم يزل هو والمسلمون فى الذكر والدعاء إلى أن غربت الشمس . فدفع بهم إلى مزدلفة ، فصلى المغرب والعشاء بعد مغيب الشفق قبل حط الرحال ، حين نزلوا بمزدلفة ، وبات بها حتى طلع الفجر ، فصلى بالمسلمين الفجر فى أول وقتها ، مغلسا بها زيادة على كل يوم ، ثم وقف عند قُزَح ، وهو جبل مزدلفة الذي يسمى المشعر الحرام . فلم يزل واقفاً بالمسلمين إلى أن أسفر جدا ، ثم دفع بهم حتى قدم منى ، فاستفتحها برمى جمرة العقبة ، ثم رجع إلى منزله بمنى ، فحلق رأسه ، ثم نحر ثلاثا وستين بَدَنة من الهدى الذى ساقه . وأمر عليًّا فنحر الباقى . وكان مائة بدنة . ثم أفاض إلى مكة ، فطاف طواف الإفاضة . وكان قد عجَّل ضَعَفة أهله من مزدلفة قبل طلوع الفجر ، فرموا الجمرة بليل . ثم أقام بالمسلمين أيام منى الثلاث ، يصلى بهم الصلوات الخمس مقصورة غير مجموعة ، يرمى كل يوم الجمرات الثلاث بعد زوال الشمس يستفتح بالجمرة الأولى — وهى الصغرى ، وهى الدنيا إلى منى — والقصوى من مكة . ويختتم بجمرة العقبة ، ويقف بين الجمرتين : الأولى والثانية ، وبين الثانية والثالثة وقوفاً طويلا بقدر سورة البقرة ، يذكر الله ويدعو ؛ فإن المواقف ثلاث : عرفة ، ومزدلفة ، ومنى . ثم أفاض آخر أيام التشريق بعد رمى الجمرات هو والمسلمون ، فنزل بالمحصَّب ، عند خيف بنى كنانة ، فبات هو والمسلمون ليلة الأربعاء . وبعث تلك الليلة عائشة

مع أخيها عبد الرحمن ؛ لتعتمر من التنعيم ، وهو أقرب أطراف الحرم إلى مكة، من طريق أهل المدينة . وقد بُنى بعده هناك مسجد سماه الناس مسجد عائشة ؛ لأنه لم يعتمر بعد الحج مع النبي صلى الله عليه وسلم من أصحابه أحد قط إلا عائشة ؛ لأجل أنها كانت قد حاضت لما قدمت وكانت معتمرة . فلم تطف قبل الوقوف بالبيت ، ولا بين الصفا والمروة وقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : « اقضى ما يقضى الحاج ، غير أن لا تطوفى بالبيت ، ولا بين الصفا والمروة » ثم ودع البيت هو والمسلمون ورجعوا إلى المدينة . ولم يقم بعد أيام التشريق ، ولا اعتمر أحد قط على عهده عمرة يخرج فيها من الحرم إلى الحل إلا عائشة - رضى الله عنها - وحدها فأخذ فقهاء الحديث - كأحمد وغيره - بسنته فى ذلك كله ، إلى آخر ماقال رحمه الله ورضى عنه . والله أعلم .

الحديث السابع والثمانون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « (قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن» .

رواه مسلم .

تكلم أهل العلم على معنى هذه المعادلة وتوجيهها .

وأحسن ما قيل فيها : أن معادلتها لثلث القرآن ؛ لما تضمنته من المعاني العظيمة : معاني التوحيد ، وأصول الإيمان . فإن المواضيع الجليلة التي اشتمل القرآن عليها :

١ — إما أحكام شرعية : ظاهرة أو باطنة ، عبادات أو معاملات .

٢ — وإما قصص وأخبار عن المخلوقات السابقة واللاحقة ، وأحوال المكلفين في الجزاء على الأعمال .

٣ — وإما توحيد ومعارف ، تتعلق بأسماء الله وصفاته ، وتفرده بالوحدانية والكمال ، وتنزهه عن كل عيب ، ومماثلة أحد من المخلوقات .

فسورة (قل هو الله أحد) مشتملة على هذا ، وشاملة لكل ما يجب اعتقاده من هذا الأصل ، الذي هو أصل الأصول كلها .

ولهذا أمرنا الله أن نقولها بألسنتنا ، ونعرفها بقلوبنا ، ونعترف بها وندين لله باعتقادها . والتعبد لله بها ، فقال : (قل هو الله أحد) .

فالله : هو المألوه المستحق لمعاني الألوهية كلها ، التي توجب أن

يكون هو المعبود وحده ، المحمود وحده ؛ المشكور وحده ، المعظم المقدس ، ذو الجلال والإكرام .

و « الأحد » يعنى : الذى تفرد بكل كمال ، ومجد وجلال ، وجمال وحمد ، وحكمة ورحمة ، وغيرها من صفات الكمال .

فليس له فيها مثيل ولا نظير ، ولا مناسب بوجه من الوجوه . فهو الأحد فى حياته وقيوميته ، وعلمه وقدرته ، وعظمته وجلاله ، وجماله وحمده ، وحكمته ورحمته ، وغيرها من صفاته ، موصوف بغاية الكمال ونهايته ، من كل صفة من هذه الصفات .

ومن تحقيق أحديته وتفرده بها : أنه « الصمد » أى : الرب الكامل ، والسيد العظيم ، الذي لم يبق صفة كمال إلا اتصف بها ، ووصف بغايتها وكمالها ، بحيث لا تحيط الخلائق ببعض تلك الصفات بقلوبهم ، ولا تعبر عنها ألسنتهم . وهو المصمود إليه، المقصود فى جميع الحوائج والنوائب (٥٥ : ٢٩ يسأله من فى السموات والأرض . كل يوم هو فى شأن) .

فهو الغنى بذاته ، وجميع الكائنات فقيرة إليه بذاتهم : فى إيجادهم وإعدادهم ، وإمدادهم بكل ما هم محتاجون إليه من جميع الوجوه . ليس لأحد منها غنى عنه مثقال ذرة ، فى كل حالة من أحوالها .

فالصمد : هو المصمود إليه ، المقصود فى كل شىء ؛ لكماله وكرمه وجوده وإحسانه . ولذلك (لم يلد ولم يولد) فإن المخلوقات كلها متولد

بعضها من بعض ، وبعضها والد بعض ، وبعضها مولود وكل مخلوق فإنه مخلوق من مادة . وأما الرب جل جلاله : فإنه منزه عن مماثلتها فى هذا الوصف ، كما هو منزه عن مماثلتها فى كل صفة نقص .

ولهذا حقق ذلك التنزيه ، وتم ذلك الكمال بقوله (ولم يكن له كفوًا أحد) أى : ليس له نظير ولا مكافىء ولا مثيل . لا فى أسمائه ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، ولا فى جميع حقوقه التى اختص بها .

فحقه الخاص أمران : التفرد بالكمال كله من جميع الوجوه ، والعبودية الخالصة من جميع الخلق .

فحق لسورة تتضمن هذه الجمل العظيمة : أن تعادل ثلث القرآن . فإن جميع ما فى القرآن من الأسماء الحسنى ، ومن الصفات العظيمة العليا ، ومن أفعال الله وأحكام صفاته : تفاصيل لهذه الأسماء التى ذكرت فى هذه السورة ، بل كل ما فى القرآن من العبوديات الظاهرة والباطنة ، وأصنافها وتفاصيلها : تفصيل لمضمون هذه السورة . والله أعلم .

الحديث الثامن والثمانون

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا ، فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ، ويعلمها » .

متفق عليه .

الحسد نوعان : نوع محرم مذموم على كل حال ، وهو أن يتمنى زوال نعمة الله عن العبد — دينية أو دنيوية — وسواء أحب ذلك محبة استقرت فى قلبه ، ولم يجاهد نفسه عنها ، أو سعى مع ذلك فى إزالتها وإخفائها : وهذا أقبح ؛ فإنه ظلم متكرر .

وهذا النوع هو الذى يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

والنوع الثانى : أن لا يتمنى زوال نعمة الله عن الغير ، ولكن يتمنى حصول مثلها له ، أو فوقها أو دونها .

وهذا نوعان : محمود ، وغير محمود .

فالمحمود من ذلك : أن يرى نعمة الله الدينية على عبده ، فيتمنى أن يكون له مثلها . فهذا من باب تمنى الخير . فإن قارن ذلك سعى وعمل لتحصيل ذلك : فهو نور على نور .

وأعظم من يغبط : من كان عنده مال قد حصل له من حله ، ثم

سُلّط ووفق على إنفاقه فى الحق ، فى الحقوق الواجبة والمستحبة ؛ فإن هذا من أعظم البرهان على الإيمان ، ومن أعظم أنواع الإحسان .

ومن كان عنده علم وحكمة علمه الله إياها ، فوفق لبذلها فى التعليم والحكم بين الناس . فهذان النوعان من الإحسان لا يعادلهما شىء .

الأول : ينفع الخلق بماله ، ويدفع حاجاتهم ، وينفق فى المشاريع الخيرية ، فتقوم ويتسلسل نفعها ، ويعظم وقعها .

والثانى : ينفع الناس بعلمه ، وينشر بينهم الدين والعلم الذى يهتدى به العباد فى جميع أمورهم : من عبادات ومعاملات وغيرها .

ثم بعد هذين الاثنين : تكون الغبطة على الخير ، بحسب حاله ودرجاته عند الله . ولهذا أمر الله تعالى بالفرح والاستبشار بحصول هذا الخير ، وإنه لا يوفق لذلك إلا أهل الحظوظ العظيمة العالية . قال تعالى (١٠ : ٥٨ قل بفضل الله ورحمته ، فبذلك فليفرحوا ؛ هو خير مما يجمعون) وقال : (٤١ : ٣٤ ، ٣٥ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم . وما يُلقَّاها إلا الذين صبروا وما يلقَّاها إلا ذو حظ عظيم) .

وقد يكون من تمنى شيئاً من هذه الخيرات ، له مثل أجر الفاعل إذا صدقت نيته ، وصمم من عزيمته أن لو قدر على ذلك العمل ، لعَمِل مثله ، كما ثبت بذلك الحديث . وخصوصاً إذا شرع وسعى ببعض

السعى

وأما الغبطة التي هي غير محمودة : فهي تمني حصول مطالب الدنيا لأجل اللذات ، وتناول الشهوات ، كما قال الله تعالى حكاية عن قوم قارون : (٢٨ : ٧٩ يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ؛ إنه لذو حظ عظيم) فإن تمني مثل حالة من يعمل السيئات فهو بنيته ، ووزرهما سواء .

فبهذا التفصيل يتضح الحسد المذموم في كل حال . والحسد الذي هو الغبطة ، الذي يحمد في حال ، ويذم في حال . والله أعلم .

الحديث التاسع والثمانون

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو ، فيقول : اللهم إنى أسألك الهدى والتقى ، والعفاف والغنى » .

رواه مسلم .

هذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها . وهو يتضمن سؤال خير الدين وخير الدنيا ؛ فإن « الهدى » هو العلم النافع . و « التقي » العمل الصالح ، وترك ما نهى الله ورسوله عنه . وبذلك يصلح الدين . فإن الدين علوم نافعة ، ومعارف صادقة . فهى الهدى ، وقيام بطاعة الله ورسوله : فهو التقى .

و « العفاف والغنى » يتضمن العفاف عن الخلق ، وعدم تعليق القلب بهم . والغنى بالله وبرزقه ، والقناعة بما فيه ، وحصول ما يطمئن به القلب من الكفاية . وبذلك تتم سعادة الحياة الدنيا ، والراحة القلبية ، وهى الحياة الطيبة .

فمن رزق الهدى والتقى ، والعفاف والغنى : نال السعادتين ، وحصل له كل مطلوب . ونجا من كل مرهوب . والله أعلم .

الحديث التسعون

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحب أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة : فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه » . رواه مسلم .

لا شك أن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وأن هذه غاية يسعى إليها جميع المؤمنين فذكر النبي صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث لها سببين ، ترجع إليهما جميع الشعب والفروع : الإيمان بالله واليوم الآخر ، المتضمن للإيمان بالأصول التى ذكرها الله بقوله : (٢: ١٣٦ قولوا : آمنا بالله ـ الآية) ومتضمن للعمل للآخرة والاستعداد لها ؛ لأن الإيمان الصحيح يقتضى ذلك ويستلزمه. والإحسان إلى الناس، وأن يصل إليهم منه القول والفعل والمال والمعاملة مايحب أن يعاملوه به

فهذا هو الميزان الصحيح للإحسان وللنصح ، فكل أمر أشكل عليك مما تعامل به الناس فانظر : هل تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة أم لا ؟ فإن كنت تحب ذلك : كنت محباً لهم ما تحب لنفسك ، وإن كنت لا تحب أن يعاملوك بتلك المعاملة : فقد ضيعت هذا الواجب العظيم .

فالجملة الأولى : فيها القيام بحق الله . والجملة الثانية فيها القيام بحق الخلق . والله أعلم .

الحديث الحادى والتسعون

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويكره لكم ثلاثاً . فيرضى لكم : أن أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ، ولا تفرقوا . ويكره لكم : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال »

رواه مسلم .

فيه : إثبات الرضى لله ، وذكر متعلقاته ، وإثبات الكراهة منه . وذكر متعلقاتها ؛ فإن الله جل جلاله من كرمه على عباده ، يرضى لهم ما فيه مصلحتهم ، وسعادتهم فى العاجل والآجل .

وذلك بالقيام بعبادة الله وحده لا شريك له ، وإخلاص الدين له بأن يقوم الناس بعقائد الإيمان وأصوله ، وشرائع الإسلام الظاهرة والباطنة ، وبالأعمال الصالحة ، والأخلاق الزاكية كل ذلك خالصاً لله موافقاً لمرضاته . على سنة نبيه . ويعتصموا بحبل الله ، وهو دينه الذى هو الوصلة بينه وبين عباده . فيقوموا به مجتمعين متعاونين على البر والتقوى « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يكذبه ، ولا يحقره » بل يكون محباً له مصافياً ، وأخا معاونا .

وبهذا الأصل والذى قبله يكمل الدين ، وتتم النعمة على المسلمين ، ويعزهم الله بذلك وينصرهم ، لقيامهم بجميع الوسائل التى أمرهم الله بها

والتى تكفل لمن قام بها بالنصر والتمكين ، وبالفلاح والنجاح العاجل والآجل .

ثم ذكر ما كره الله لعباده ، مما ينافى هذه الأمور التى يحبها ويبغضها . فمنها : كثرة القيل والقال ؛ فإن ذلك من دواعى الكذب ، وعدم التثبت ، واعتقاد غير الحق . ومن أسباب وقوع الفتن ، وتنافر القلوب . ومن الاشتغال بالأمور الضارة عن الأمور النافعة . وقلّ أن يسلم أحد من شىء من ذلك ، إذا كانت رغبته فى القيل والقال .

وأما قوله: « وكثرة السؤال » فهذا هو السؤال المذموم ، كسؤال الدنيا من غير حاجة وضرورة ، والسؤال على وجه التعنت والإعنات ، وعن الأمور التى يخشى من ضررها ، أو عن الأمور التى لا نفع فيها ، الداخلة فى قوله تعالى : (٥ : ١٠١ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) .

وأما السؤال عن العلوم النافعة على وجه الاسترشاد أو الإرشاد : فهذا محمود مأمور به .

وقوله : « وإضاعة المال » وذلك إما بترك حفظه حتى يضيع ، أو يكون عرضة للسرّاق والضياع ، وإما بإهمال عمارة عقاره ، أو الإنفاق على حيوانه ، وإما بإنفاق المال فى الأمور الضارة ، أو الغير النافعة . فكل هذا داخل فى إضاعة المال . وإما بتولى ناقصى العقول لها ، كالصغار والسفهاء والمجانين ونحوهم ؛ لأن الله تعالى جعل الأموال قياماً

للناس ، بهــا تقوم مصالحهم الدينية والدنيوية . فتمام النعمة فيها : أن تصرف فيما خلقت له : من المنافع ، والأمور الشرعية ، والمنافع الدنيوية

وما كرهه الله لعباده : فهو يحب منهم ضدها ، يحب منهم - أن يكونوا متثبتين فى جميع ما يقولونه ، وأن لا ينقــلوا كل ما سمعوه ، وأن يكونوا متحرين للصدق ، وأن لا يسألوا إلا عما ينفع ، وأن يحفظوا أموالهم ويدبروها ، ويتصرفوا فيها التصرفات النافعة ، ويصرفوها فى المصارف النافعة . ولهذا قال تعالى (٤ : ٥ ولا تؤتوا السفهاء أموالــكم التى جعل الــكم قياماً)

والحمد لله أولا وآخراً . والله أعلم .

الحديث الثاني والتسعون

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « دخلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح ، لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بنيّ ، إلا ما أخذتُ من ماله بغير علمه . فهل عليَّ في ذلك من جناح ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك »

متفق عليه .

أخذ العلماء من هذا الحديث فقهاً كثيراً سأشير إلى ما يحضرني منه : أن المستفتي والمتظلم يجوز أن يتكلم بالصدق فيمن تعلق به الاستفتاء والتظلم ، وليس من الغيبة المحرمة ، وهو أحد للمواضع المستثنيات من الغيبة . ويجمع الجميع : الحاجة إلى التكلم في الغير ؛ فإن الغيبة المحرمة ذكرك أخاك بما يكره . فإن احتيج إلى ذلك ـ كما ذكرنا وكما في النصيحة الخاصة ، أو العامة ، أو لا يعرف إلا بلقبه ـ جاز ذلك بمقدار ما يحصل به المقصود .

ومنه : أن نفقة الأولاد واجبة على الأب ، وأنه يختص بها ، لا تشاركه الأم فيها ولا غيره .

وكذلك فيه : وجوب نفقة الزوجة ، وأن مقدار ذلك الكفاية ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : « خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي

بنيك » وأن الكفاية معتبرة بالعرف ، بحسب أحوال الناس : فى زمانهم ومكانهم ، ويسرهم وعسرهم ، وأن للنفق إذا امتنع أو شحّ عن النفقة أصلا أو تكميلا : فلمن له النفقة أو يباشر الإنفاق أن يأخذ من ماله ، ولو بغير علمه . وذلك لأن السبب ظاهر . ولا ينسب فى هذه الحالة إلى خيانة . فلا يدخل فى قوله صلى الله عليه وسلم : « لاتخن من خانك » .

وهذا هو القول الوسط الصحيح فى مسألة الأخذ من مال من له حق عليه بغير علمه بمقدار حقه . وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد: أنه لايجوز ذلك، إلا إذا كان السبب ظاهراً ، كالنفقة على الزوجة والأولاد والمماليك ونحوهم . وكحق الضيف .

ومنه : أن المتولى أمراً من الأمور يحتاج فيه إلى تقدير مالى : يقبل قوله في التقدير ؛ لأنه مؤتمن . له الولاية على ذلك الشىء .

ومنه : أن المستفتى فتوى لها تعلق بالغير ، وغلب على ظن المسؤول صدقه : لا يحتاج إلى إحضار ذلك الغير . وخصوصاً إذا كان فى ذلك مفسدة ، كما فى هذه القضية ؛ فإنه لو أحضر أبا سفيان لهذه الشكاية لم يؤمن أن يقع بينه و بين زوجه ما لا ينبغى .

وليس فى هذا دلالة على الغائب ؛ فإن هذا ليس بحكم . وإنما هو استفتاء . والله أعلم .

الحديث الثالث والتسعون

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان » .

متفق عليه .

هذا الحديث يدل على أمور :

أحدها : نهى الحاكم بين الناس أن يحكم في كل قضية معينة بين اثنين وهو غضبان ، سواء كان ذلك فى القضايا الدينية أو الدنيوية . وذلك لما فى الغضب من تغير الفكر وانحرافه . وهذا الانحراف للفكر يضر فى استحضاره للحق . ويضر أيضاً فى قصده الحق . والغرض الأصلى للحاكم وغيره : قصد الحق علماً وعملا .

الثانى : يدل على أنه ينبغى أن يجتهد فى الأخذ بالأسباب التي تصرف الغضب ، أو تخففه : من التخلق بالحلم والصبر ، وتوطين النفس على ما يصيبه ، وما يسمعه من الخصوم ؛ فإن هذا عون كبير على دفع الغضب ، أو تخفيفه .

الثالث : يؤخذ من هذا التعليل : أن كل ما منع الإنسان من معرفة الحق أو قصده ، فحكمه حكم الغضب . وذلك كالهم الشديد ، والجوع والعطش ، وكونه حاقناً أو حاقباً أو نحوهما ، مما يشغل الفكر مثل أو أكثر من الغضب .

الرابع : أن النهى عن الحكم فى حال الغضب ونحـوه مقصود لغيره . وهو أنه ينبغى للحاكم أن لا يحكم حتى يحيط علماً بالحكم الشرعى الـكلى ، وبالقضية الجزئية من جميع أطرافها ، ويحسن كيف يطبقهـا على الحـكم الشرعى ؛ فإن الحا كم محتاج إلى هذه الأمور الثلاثة .

الأول: العلم بالطرق الشرعية، التي وضعها الشارع لفصل الخصومات والحـكم بين الناس .

الثانى : أن يفهم ما بين الخصمين من الخصومة ، ويتصورها تصوراً تاما ، ويدع كل واحد منهما يدلى بحجته ، ويشرح قضيته شرحاً تاماً . ثم إذا تحقق ذلك وأحاط به علماً احتاج إلى الأمر الثالث

وهو صفة تطبيقها وإدخالها فى الأحكام الشرعية ، فمتى وفق لهذه الأمور الثلاثة ، وقصد العدل : وفق له ، وهدى إليه . ومتى فاته واحد منها : حصل الغلط : واختل الحكم . والله أعلم .

الحديث الرابع والتسعون

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كُلْ واشرب، والبَسْ وتصدق، من غير سَرَف ولا مَخيلة» رواه أحمد وأبو داود. وعلقه البخاري.

هذا الحديث مشتمل على استعمال المال فى الأمور النافعة فى الدين والدنيا، وتجنب الأمور الضارة. وذلك أن الله تعالى جعل المال قواما للعباد، به تقوم أحوالهم الخاصة والعامة، الدينية والدنيوية. وقد أرشد الله ورسوله فيه ـ استخراجا واستعمالا، وتدبيراً وتصريفاً ـ إلى أحسن الطرق وأنفعها، وأحسنها عاقبة: حالا ومآلا.

أرشد فيه إلي السعى فى تحصيله بالأسباب المباحة والنافعة، وأن يكون الطلب جميلا، لا كسل معه ولا فتور، ولا انهماك فى تحصيله. انهماكا يخل بحالة الإنسان، وأن يتجنب من المكاسب المحرمة والرديئة ثم إذا تحصل سعى الإنسان فى حفظه واستعماله بالمعروف، بالأكل والشرب واللباس، والأمور المحتاج إليها، هو ومن يتصل به من زوجة وأولاد وغيرهم، من غير تقتير ولا تبذير.

وكذلك إذا أخرجه للغير فيخرجه فى الطرق التى تنفعه، ويبقي له ثوابها وخيرها، كالصدقة على المحتاج من الأقارب والجيران ونحوهم، وكالإهداء والدعوات التى جرى العرف بها.

وكل ذلك معلق بعدم الإسراف ، وقصد الفخر والخيلاء ، كما قيده في هذا الحديث ، وكما في قوله تعالى (٢٥ : ٦٧ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا . وكان بين ذلك قواما)

فهذا هو العدل في تدبير المال : أن يكون قواما بين رتبتي البخل والتبذير . وبذلك تقوم الأمور وتتم . وما سوى هذا : فإثم وضرر ، ونقص في العقل والحال . والله أعلم .

الحديث الخامس والتسعون

عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : «قيل: يارسول الله ، أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده ـ أو يحبه ـ الناس عليه ؟ قال: تلك عاجل بشرى المؤمن» .

رواه مسلم .

أخبر صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث : أن آثار الأعمال المحمودة المعجلة أنها من البشرى ؛ فإن الله وعد أولياءه ـ وهم المؤمنون المتقون ـ بالبشرى في هذه الحياة وفي الآخرة .

و «البشارة» الخبر أو الأمر السار الذي يعرف به العبد حسن عاقبته ، وأنه من أهل السعادة ، وأن عمله مقبول .

أما في الآخرة : فهي البشارة برضى الله وثوابه ، والنجاة من غضبه وعقابه ، عند الموت ، وفي القبر ، وعند القيام إلى البعث يبعث الله لعبده المؤمن في تلك المواضع بالبشرى على يدي الملائكة ، كما تكاثرت بذلك نصوص الكتاب والسنة ، وهي معروفة .

وأما البشارة في الدنيا التي يعجلها الله للمؤمنين ؛ نموذجا وتعجيلا لفضله ، وتعرفا لهم بذلك ، وتنشيطاً لهم على الأعمال : فأعمها توفيقه لهم للخير ، وعصمته لهم من الشر ، كما قال صلى الله عليه وسلم: «أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة» .

فإذا كان العبد يجد أعمال الخير ميسرة له ، مسهلة عليه ، ويجد نفسه محفوظاً بحفظ الله عن الأعمال التى تضره : كان هذا من البشرى التى يستدل بها المؤمن على عاقبة أمره ؛ فإن الله أكرم الأكرمين ، وأجود الأجودين . وإذا ابتدأ عبده بالإحسان أتمه . فأعظم منة وإحسان يمن به عليه : إحسانه الدينى . فيسرّ المؤمن بذلك أكمل سرور : سرور بمنة الله عليه بأعمال الخير ، وتيسيرها ؛ لأن أعظم علامات الإيمان محبة الخير ، والرغبة فيه ، والسرور بفعله . وسرور ثان بطمعه الشديد فى إتمام الله نعمته عليه ، ودوام فضله .

ومن ذلك : ما ذكره النبى صلى الله عليه وسلم : فى هذا الحديث : إذا عمل العبد عملا من أعمال الخير ـ وخصوصاً الآثار الصالحة والمشاريع الخيرية العامة النفع ، وترتب على ذلك محبة الناس له ، وثناؤهم عليه ، ودعاؤهم له ـ كان هذا من البشرى : أن هذا العمل من الأعمال المقبولة ، التى جعل الله فيها خيراً وبركة .

ومن البشرى فى الحياة الدنيا : محبة المؤمنين للعبد : لقوله تعالي : (١٩ : ٩٦ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدًّا) أى محبة منه لهم ، وتحبيبا لهم فى قلوب العباد .

ومن ذلك : الثناء الحسن ؛ فإن كثرة ثناء المؤمنين على العبد شهادة منهم له . والمؤمنون شهداء الله فى أرضه .

ومن ذلك : الرؤيا الصالحة يراها المؤمن ، أو تُرى له ؛ فإن الرؤيا الصالحة من المبشرات .

ومن البشرى : أن يقدر الله على العبد تقديراً يحبه أو يكرهه. ويجعل ذلك التقدير وسيلة إلى صلاح دينه ، وسلامته من الشر .

وأنواع ألطاف البارى سبحانه وتعالى لا تعدّ ولا تحصى ، ولا تخطر بالبال ، ولا تدور فى الخيال . والله أعلم .

الحديث السادس والتسعون

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « رضى الله فى رضى الوالدين. وسخط الله فى سخط الوالدين ».

أخرجه الترمذى. وصححه ابن حبان والحاكم.

هذا الحديث دليل على فضل برّ الوالدين ووجوبه، وأنه سبب لرضى الله تعالى. وعلى التحذير عن عقوق الوالدين وتحريمه، وأنه سبب لسخط الله.

ولا شك أن هذا من رحمة الله بالوالدين والأولاد؛ إذ بين الوالدين وأولادهم من الاتصال مالا يشبهه شيء من الصلات والارتباط الوثيق، والإحسان من الوالدين الذى لا يساويه إحسان أحد من الخلق. والتربية المتنوعة وحاجة الأولاد، الدينية والدنيوية إلى القيام بهذا الحق المتأكد؛ وفاء بالحق، واكتساباً للثواب، وتعليماً لذريتهم أن يعاملوهم بما عاملوا به والديهم.

هذه الأسباب وما يتفرع عنها موجب لجعل رضاهما مقروناً برضا الله. وضده بضده.

وإذا قيل: فما هو البر الذى أمر الله به ورسوله؟

قيل: قد حدّه الله ورسوله بحد معروف، وتفسير يفهمه كل أحد. فالله تعالى أطلق الأمر بالإحسان إليهما. وذكر بعض الأمثلة

التي هي أنموذج من الإحسان . فكل إحسان قولي أو فعلي أو بدني ، بحسب أحوال الوالدين والأولاد والوقت والمكان : فإن هذا هو البر .

وفي هذا الحديث : ذكر غاية البر ونهايته التي هي رضى الوالدين ؛ فالإحسان موجب وسبب ، والرضى أثر ومسبب . فكل ماأرضى الوالدين من جميع أنواع المعاملات العرفية، وسلوك كل طريق ووسيلة ترضيهما : فإنه داخل في البر ، كما أن العقوق : كل ما يسخطهما من قول أو فعل . ولكن ذلك مقيد بالطاعة لا بالمعصية . فمتى تعذر على الولد إرضاء والديه إلا بإسخاط الله : وجب تقديم محبة الله على محبة الوالدين . وكان اللوم والجناية من الوالدين ، فلا يلومان إلا أنفسهما .

وفي هذا الحديث : إثبات صفة الرضى والسخط لله ، وأن ذلك متعلق بمحابه ومراضيه . فالله تعالى يحب أولياءه وأصفياءه . ويحب من قام بطاعته وطاعة رسوله . وهذا من كماله وحكمته وحمده ، ورحمته ورضاه وسخطه ، من صفاته المتعلقة بمشيئته وقدرته .

والعصمة في ذلك : أنه يجب على المؤمن أن يثبت ما أثبته الله لنفسه ، وأثبته له رسوله من صفات الكمال الذاتية والفعلية ، على وجه يليق بعظمة الله وكبريائه ومجده . ويعلم أن الله ليس له ندٌّ ، ولا كفو ، ولا مثيل في ذاته وأسمائه ، وصفاته وأفعاله . والله أعلم .

الحديث السابع والتسعون

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : « ثلاث لا يَغُلُّ عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمور ، ولزوم جماعة المسلمين ؛ فإن دعوتهم تحيط من ورائهم » .

رواه مسلم .

قال الشيخ شمس الدين ابن القيم رحمه الله : أى لا يبقى فى القلب غل ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة ، بل تنفى عنه غله، وتنقيه منه ، وتخرجه منه ؛ فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل . وكذلك يغل على الغش ، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلال . فهذه الثلاثة تملؤه غلا ودغلا . ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه ، بتجريد الإخلاص والنصح ، ومتابعة السنة . انتهى .

أى ؛ فمن أخلص أعماله كلها لله ، ونصح فى أموره كلها لعباد الله ، ولزم الجماعة بالائتلاف ، وعدم الاختلاف . وصار قلبه صافياً نقياً ، صار لله ولياً . ومن كان بخلاف ذلك : امتلأ قلبه من كل آفة وشر . والله أعلم .

الحديث الثامن والتسعون

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما الناس كالإبل المائة . لا تكاد تجد فيها راحلة » . متفق عليه .

هذا الحديث مشتمل على خبر صادق ، وإرشاد نافع .

أما الخبر : فإنه صلى الله عليه وسلم أخبر : أن النقص شامل لأكثر الناس ، وأن الكامل - أو مقارب الكمال - فيهم قليل ، كالإبل المائة ، تستكثرها . فإذا أردت منها راحلة تصلح للحمل والركوب ، والذهاب والإياب : لم تكد تجدها . وهكذا الناس كثير . فإذا أردت أن تنتخب منهم من يصلح للتعليم أو الفتوى أو الإمامة ، أو الولايات الكبار أو الصغار ، أو للوظائف المهمة : لم تكد تجد من يقوم بتلك الوظيفة قياما صالحا . وهذا هو الواقع ؛ فإن الإنسان ظلوم جهول والظلم والجهل سبب للنقائص ، وهي مانعة من الكمال والتكميل .

وأما الإرشاد : فإن مضمون هذا الخبر : إرشاد منه صلى الله عليه وسلم إلى أنه ينبغي لمجموع الأمة : أن يسعوا ، ويجتهدوا في تأهيل الرجال الذين يصلحون للقيام بالمهمات ، والأمور الكلية العامة النفع .

وقد أرشد الله إلى هذا المعنى في قوله : (٩ : ١٢٢ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) .

فأمر بالجهاد ، وأن يقوم به طائفة كافية ، وأن يتصدى للعلم طائفة أخرى ؛ ليعين هؤلاء هؤلاء ، وهؤلاء هؤلاء . وأمره تعالى بالولايات والتولية أمر بها ؛ وبما لا تتم إلا به : من الشروط والمكملات .

فالوظائف الدينية والدنيوية ، والأعمال الكلية ، لا بد للناس منها . ولا تتم مصلحتهم إلا بها ، وهي لا تتم إلا بأن يتولاها الأكفاء والأمناء . وذلك يستدعي السعي في تحصيل هذه الأوصاف ، بحسب الاستطاعة . قال الله تعالى : (٦٤ : ١٦ فاتقوا الله ما استطعتم) . والله أعلم .

الحديث التاسع والتسعون

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يأتى على الناس زمان : القابض على دينه كالقابض على الجمر ». رواه الترمذى .

وهذا الحديث أيضاً يقتضى خبراً وإرشاداً .

أما الخبر : فانه صلى الله عليه وسلم أخبر : أنه فى آخر الزمان يقل الخير وأسبابه ، ويكثر الشر وأسبابه ، وأنه عند ذلك يكون المتمسك بالدين من الناس أقل القليل . وهذا القليل فى حالة شدة ومشقة عظيمة ، كحالة القابض على الجمر : من قوة المعارضين ، وكثرة الفتن المضلة ، فتن الشبهات والشكوك والإلحاد ،وفتن الشهوات وانصراف الخلق إلى الدنيا وانهماكهم فيها ، ظاهراً وباطناً ، وضعف الإيمان ، وشدة التفرد ؛ لقلة المعين والمساعد .

ولكن المتمسك بدينه ، القائم بدفع هذه المعارضات والعوائق التى لا يصمد لها إلا أهل البصيرة واليقين ، وأهل الإيمان المتين : من أفضل الخلق ، وأرفعهم عند الله درجة ، وأعظمهم عنده قدراً .

وأما الإرشاد : فإنه إرشاد لأمته : أن يوطنوا أنفسهم على هذه الحالة ، وأن يعرفوا أنه لابد منها ، وأن من اقتحم هذه العقبات ، وصبر على دينه وإيمانه ــ مع هذه المعارضات ــ فإن له عند الله أعلى الدرجات . وسيعينه مولاه على ما يحبه ويرضاه ؛ فإن المعونة على قدر المؤنة .

وما أشبه زماننا هذا بهـذا الوصف ، الذى ذكره صلى الله عليه وسلم ، فإنه ما بقى من الإسـلام إلا اسمه ، ولا من القرآن إلا رسمه : إيمان ضعيف ، وقلوب متفرقة ، وحكومات متشتتة ، وعداوات وبغضاء باعدت بين المسلمين ، وأعداء ظاهرون وباطنون ، يعملون سراً وعلناً للقضـاء على الدين ، وإلحـاد وماديات ، جرفت بخبيث تيارها وأمواجها المتلاطمة الشيوخ والشبان ودعايات إلى فساد الأخلاق ، والقضاء على بقية الرمق . ثم إقبـال الناس على زخارف الدنيا ، بحيث أصبحت هى مبلغ علمهم ، وأكبر همهم ، ولها يرضـون ويغضبون ، ودعاية خبيثة للتزهيد فى الآخرة ، والإقبال بالكلية على تعمير الدنيا ، وتدمير الدين ، واحتقـاره والاستهزاء بأهله ، وبكل ما ينسب إليه ، ونخر ونفخفخة ، واستكبار بالمدنيات المبنيةعلى الإلحاد التى آثارها وشررها وشرورها قد شاهده العباد .

فمع هـذه الشرور المتراكمة ، والأمواج المتلاطمة ، والمزعجات الملمة ، والفتن الحاضرة والمستقبلة المدلهمة ــ مع هذه الأمور وغيرها ــ تجد مصداق هذا الحديث .

ولـكن مع ذلك ، فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله ، ولا ييأس من روح الله ، ولا يكون نظره مقصوراً على الأسباب الظاهرة . بل يكون ملتفتاً فى قلبه كل وقت إلى مسبب الأسباب ، الكريم الوهاب ، ويكون الفرج بين عينيه ، ووعده الذى لا يخلفه ، بأنه سيجعل له بعد

عسر يسراً ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن تفريج الكربات مع شدة الكربات ، وحلول المفظعات .

فالمؤمن من يقول فى هذه الأحوال: « لا حول ولا قوة إلا بالله» و « حسبنا الله ونعم الوكيل . على الله توكلنا . اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكي . وأنت المستعان . وبك المستغاث . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » ويقوم بما يقدر عليه من الإيمان والنصح والدعوة . ويقنع باليسير ، اذا لم يمكن الكثير . وبزوال بعض الشر وتخفيفه ، إذا تعذر غير ذلك (٦٥ : ٢ـ٤ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ـ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ـ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً) .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

تمت هذه الرسالة المشتملة على شرح تسع وتسعين حديثاً ، من الأحاديث النبوية الجوامع ، فى أصناف العلوم ، والمواضيع النافعة ، والعقائد الصحيحة ، والأخلاق الكريمة ، والفقه والآداب ، والإصلاحات الشاملة ، والفوائد العامة .

قال ذلك معلقها : عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدى . غفر الله له ولوالديه ووالديهم ، وجميع المسلمين .

وفرغ منه فى العاشر من شعبان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وألف من الهجرة .

وقد وقع الفراغ من نقلها بعون الله تعالى وتيسيره من خط المؤلف في ٢٧ رمضان سنة ١٣٧١ هـ بقلم الفقير إلى ربه المنان عبد الله بن سليمان العبد الله السلمان . غفر الله له ولوالديه ووالديهم وجميع المسلمين .

هذه جوهرة نفيسة . وروضة ممرعة ، هي: بغية الراغبين ، ونزهة المستفيدين ، وبهجة الناظرين ، لما ظهرت به من مظهر أنيق ، وتحلت به من زهور المعارف والتحقيق . ولما أودعته من فوائد جليلة ، سهل اجتناؤها ، وثمرات دانية طاب مذاقها . ومناهل عذبة ، راق مشربها . حيث اشتملت على بيان العقائد النافعة ، والأصول الجامعة ، والأحكام المتنوعة ، والآداب السامية ، وغيرها من المواضيع المهمة ، والعلوم الجمة ، التي تكسب الإنسان هدى ورشداً ، وتزيده بصيرة ويقيناً .

وحسبك منها : أنها شرح لكلام هو أشرف الكلام ، بعد كلام الله ، وأجمعه للخير وأنفعه ، كلام أعلم الخلق ، وأفصحهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وتبيين لمقاصده الشريفة ، وكنوزه النفيسة ، يقدمها الشيخ الفاضل عبد الرحمن بن ناصر السعدي . جزاه الله عن الإسلام وأهله خيراً . ولا زالت شموس تحقيقه مشرقة ، وبدور علومه نيرة .

تم الطبع والتصحيح بمطبعة السنة المحمدية في غرة جمادى الأولى سنة ١٣٧٢ هـ الموافق ١٧ من شهر يناير سنة ١٩٥٣ م على يد فقير عفو الله ورحمته : محمد حامد الفقي الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية بالقاهرة .

فهرس

بهجة قلوب الأبرار فى شرح جوامع الأخبار بذكر اللفظ المقصود من الحديث